أبو نوران حامد بن عبد الحميد

العفة

الكنز الذى لا يكلف درهما

وبيان موقف

يوسف عليه السلام من امرأة العزيز

بين أن أغلق الباب وفتح



مكتبة الصحابة
الإمارات - الشارقة

تقديم فضيلة الشيخ
أبي عمير مجدي بن عرفات المصري الأثري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، ومن بهدي الرسول ﷺ اكتفى. وبعد . . .

فإن العفة خلق كريم أمر به ديننا العظيم، واتصف به سيد الأولين والآخرين نبينا محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وقال ﷺ في ذكر أهل الجنة: «وعفيف متعفف ذو عيال . .» رواه مسلم من حديث عياض بن حمار.

وقال ﷺ في دعائه: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى» رواه مسلم من حديث ابن مسعود.

وقال ﷺ: «. . ومن يستعفف يعفه الله . .» متفق عليه من حديث أبي سعيد.

إلى غير ذلك من الأدلة القرآنية والأحاديث النبوية التي تأمر أو تمدح العفة.

والعفة هي: حصول حالة للنفس تمتنع بها من غلبة الشهوة [المفردات - الراغب]

أو هي: هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هذه الشهوة، والخمود الذي هو تفريطها فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة

[التعريفات - الجرجاني]

قال الماوردي: والعفة نوعان:

أحدهما: العفة عن المحارم. والثاني: العفة عن المآثم.

فأما العفة عن المحارم فنوعان: أحدهما: ضبط الفرج عن الحرام. والثاني: كف اللسان عن الأعراض، . .

ثم قال: وأما العفة عن المآثم فنوعان أيضًا. أحدهما: الكف عن المجاهرة بالظلم. والثاني: زجر النفس عن الإسرار بخيانة [مختصر من أدب الدنيا والدين]

* **قال سفيان الثوري رحمه الله:** إن أول ما نبدأ به في يومنا عفة أبصارنا.

[الورع لابن أبي الدنيا]

* **وأنشد ثعلب:**

من عفّ خفّ على الصديق لقاؤه ... وأخو الحوائج وجهه مملول

وأخوك من وفرت ما في كيسه ... فإذا عبثت به فأنت ثقيل

[أدب الدنيا والدينَ]

* **قال محمد بن داود:** (من كان ظريفًا فليكن عفيفًا).

ونظم هذا المعنى أحدهم فقال:

ليس الظريف بكامل في ظرفه ... حتى يكون عن الحرام عفيفا

فإذا تعفف عن معاصي ربّه ... فهناك يدعى في الأنام ظريفا

[الآداب الشرعية لابن مفلح]

* **قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:** «العالم إذا كان عليمًا ولم يكن عفيفًا كان ضرره أشد من ضرر الجاهل» [فتح الباري].

والحديث ذو شجون والكلام عن العفة يطول ولكن بين يديّ كتاب **(العفة) لراقمه أبي نوران حامد بن عبد الحميد بأسلوبه الشيق الجذاب وسلاسته الممتنعة وألفاظه البديعة مما جعلني أمرّ عليه كله في مجلس واحد.**

فالله أسأل أن يجزيه عليه خير الجزاء وأن يرزقنا جميعًا العفة بمعناها الكامل عفة الظاهر والباطن عفة اللسان والفرج، عفة السمع والبصر عفة الجوارح كلها ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب: أبو عمير

مجدي بن عرفات المصري الأثري

الكرامة في غرة ذي الحجة الحرام لسنة ١٤٢٠ هـ



الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م

رقم الإيداع

٢٠٠٠/٩٣١٥

هاتف ٤٤١٨٣٢٥ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ .

[آل عمران : ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ . [النساء : ١]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

[الأحزاب : ٧٠ ، ٧١]

أما بعد،

فقد رغَّبَ إليَّ بعضُ أودَّائى أن أكتبَ عن موقفِ يوسفَ عليه السلام تِلقَاءَ امرأةِ العزيزِ .

وكان قد سَمِعَ ذلكَ مني فظنَّ أن في الضرعِ لبنًا.

ومع ذلك فقد ألفى ذلك في نفسي مثيلَهُ فوافق شنٌّ طبقةَ[١]

---

(١) انظر : « مجمع الأمثال » للميداني ، (٤٣٤٠) . وتثقيف اللسان ص (٢٨٦) .

واستخرتُ اللهَ في ذلك ، خوفًا من الدخولِ في هذه المسالكِ ، بإلحاحٍ من أخي أو من نفسي : فكما أنَّ هناك سَبْقَ قلمٍ هناك سبق إلحاحٍ[١] .

ثم شرعتُ في المطلوبِ ، فما زلتُ أُلحقُ ما كانَ عِندِي ما فتَح اللهُ به ، حتى أصبح الفارقُ بينهما كالعروسِ قد جلاَّها النساءُ لزوجها .

ولا أُخْفِي عليك أن ذلك ثَقُلَ عليَّ إلى حدٍ بَعَدٍ ، ولقيتُ منه عرقَ الجبينِ.

فإنَّه يوسفُ ـ عليه السلام ـ ، وإنها العفةُ .

فوَصْفُكَ لنبيٍّ أُعطِيَ شطرَ الحُسْنِ[٢] ، فَحَسُنَ خَلْقُهُ وخُلُقُهُ، ووَصْفُكَ لأمْرِ النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لنا ومطلوبِهِ من ربِّه[٣] : أمرٌ يُثْنِي غَير المشتاقِ ولكنَّ الله سلَّمَ .

---

(١) ذكره ابن طاهر المقدسي في : « مسألة التسمية » (ص٢٢) .

(٢) روى الإمام مسلم ـ كتاب : الإيمان باب : الإسراء برسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن أنس بن مالك حديثَ الإسراء والمعراج وفيه: « ...**فإذا أنا بيوسف ـ عليه السلام ـ إذا هو قد أعطى شطر الحسن** ... » الحديث .

(٣) كما في كلام أبي سفيانَ لهرقلَ : « ... **ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة...**».

رواه البخاري كتاب : بدء الوحي ، باب : حدثنا أبو اليمان .

ومسلم كتاب : الجهاد والسير ، باب : كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى هرقل، كلاهما من حديث أبي سفيان رضي الله عنه .

ومنها حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا : « **كيف أنت وجوعًا يصيب الناسَ حتى تأتي مسجدكَ فلا تستطيع أن ترجع إلى فراشك ؟ ولا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك ؟** » قال : قلت : الله ورسوله أعلم (أو خار اللهُ لي ورسوله) قال : « **عليك بالعفة** » .

رواه ابن ماجه كتاب : الفتن ، باب : التثبت في الفتنة وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٤٥١) .
=

بَعِيدٌ على كسلانَ أو ذِي ملالةٍ أمَّا على المشتاقِ فهْوَ قريبُ

ومازلتُ معها حتى رَفَّ[١] لونُها ، وصَفَى ماؤها ، وقوَّمت فيها اللسانَ على قدر الإمكانِ ، ليَسْهُلَ مُجْتَناها ويَقْرُبَ مُبْتَغاها .

صَنعْتُها لك صنعةَ مَنْ طَبَّ لمن حَبَّ : جَمَعَتْ بين الوعْظِ والقَصَصِ والمقَالِ والبَحْثِ بمَزيجٍ ممزوجٍ غيرِ مخلوطٍ.

وهى – على رَهَافةِ الموضوعِ – ليسَ فيها ما يُنْدِى الجبينَ ، ولا ما يَدْفعُ الدَّمَ إلى الوَجَنَات.

تَصْلُحُ أن تكونَ هديةً لابنَتِكَ أو زوجَتِكَ أو أختِك بلا خَجَلٍ ولا وجَلٍ .

يحنُو بعضُها على بعضٍ : ما أُبْهِمَ هنا لعلَّه بانَ هناك، فخذْها كلَّها جميعَها ثم حَدِّثْني عمَّا وَجَدتَّ من طعمٍ وأثرٍ .

= ومنها حديث ابن عمر وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ مرفوعًا : « **من طالب حقا فليطلبْه في عفاف وافٍ أو غير وافٍ** ».
رواه ابن ماجه ـ أيضًا ـ كتاب : الصدقات ، باب : حسن المطالبة . وصححه الشيخ الألباني في « صحيحه » (٢٤٢١) .
ومنها حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا : « **اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى** » . وفي رواية : « **والعفة** » .
رواه مسلم ، كتاب : الذكر ، باب في الأدعية .
ومنها ـ أيضًا ـ حديث عياض بن حمار المجاشعي ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا ـ : « ... **وأهل الجنة ثلاثة : .... وعفيف متعفف ذو عيال ...** » الحديث.
رواه مسلم كتاب : الجنة ، باب : الصفات التي يعرف بها ـ في الدنيا ـ أهل الجنة .
وغير ذلك، وبعضه تجده في أعطاف الكتاب .

(١) رفَّ لونه يَرِفُّ رَفًّا ورَفيفا : برق وتلألأ . من القاموس .

واعلم أن أصلَ الكلام إنما هو عن « العفةِ »، وإنما كان الموقفُ مثالاً لذلك والأمثالُ تُحْكَى .

فأمَّا عن العفةِ فهي : مطمَعُ الكبيرِ ، وأملُ الصغيرِ ، وخير ما يَشُبُّ عليه الغنيُّ والفقيرُ .

أسلمُ طريقٍ إلى الجنةِ ، وأخصَرُ مخرجٍ من المحنةِ .

أعرَضَ عنها الدَّنيءُ فَخَابَ ، وعالَجَ بها الشريفُ الفتَنَ فأصَابَ ، قَلْبُ النَّقيصَةِ إلى الثبِّ[١] ، وصَوْنُ الأَثَرِ عن الجبِّ[٢] ، وفتحُ اللهِ على من أحبَّ .

وخالصةٌ أخلَصَنَا اللهُ بها معشَرَ البَشَرِ ، فليسَ في الدوابِّ مُسْتَعْفِفٌ ، وغايةُ ما يكونُ أن يقولُوا : اعتَفَّتِ الإبلُ اليَبِيسَ أي : أخَذَتْهُ بلسانِها فوقَ الترابِ مستصفيةً لهُ .

إنْ كانتْ مَظنَّتُها[٣] مع الأثرياءِ ، فإنَّ مئنَّتَها[٤] مع الفقراءِ، ولذا فهي خيرُ ما تترُكُهُ لوارثيك ـ وبخاصةٍ النساءُ ـ لا تَصِلُها يَدُ سارقٍ، ولا نار حارقٍ، خفيفةٌ على العاتِقِ، تُحْمَلُ في الظعْنِ والإقامةِ.

وهي أعَوَنُ متاعٍ تُصْحِبُه ابنتَك العروسَ إلى زوجِها ، ثمَّ ما أحْلَى أن يُقَالَ لها : « يا عفيفةٌ »!! وأنتَ تسمعُ .

---

(١) ثبَّ الأمر : تمَّ . من القاموس .

(٢) الجَبُّ : القطع . من القاموس .

(٣) مظنة الشيء : بكسر الظاء : موضع يظن فيه وجوده . من القاموس .

(٤) إنه لمئنة أن يكون كذا ، أي : خليق أو مخلقة مفعلة من انَّ أي جديرٌ بأن يقالَ فيه إنه كذا . من القاموس .

والعفةُ مظلةٌ وظِلُّها ظليلٌ ، عرَّفوهَا فقالوا : « الكفُّ عمَّا لا يَحلُّ ولا يَجْمُلُ » [(١)] .

وطريق ذلك : « تأدُّبُ قوةِ الشهوةِ بتأديبِ العقلِ والشرعِ » .

فهذا حالُها ومعناهَا وأمَّا حقيقَتُها فَسَلْ عنها .

سَلْ عنها : من باتَ كالا منْ عَمَلِ يَدِهِ فيما أحلَّ اللّٰهُ ، يستَعِفُّ بذلك عن سؤالِ الناسِ ، وقد عادَ توًّا إلى بيتِهِ .

أو سَلْ عنها : شابًّا أحْرَقَتْهُ الفِتَنُ ، ونَازَلَتْهُ المِحَنُ ثُمَّ هو يَغُضُّ بَصرَهُ طاعةً للهِ .

أو سَلْ عنها : من آثَرَتْ أَمْرَ اللهِ على أمْرِ الناسِ وعادَتِهِمْ ، فَغَطَّتْ عَنِ الناسِ عَوْرَتَها ـ وكلُّها عورةٌ ـ ولما أرْغَمُوها على العمل قالوا : « بِشُرُوطٍ » فَرَفَضَتْها كُلَّها وعادَت تقولُ : « تجوعُ الحُرَّةُ ولا تأكلُ بثَدْيَيْها »[(٢)] .

أو سَلْ عنها : مَنْ عَلِمَ الخَمْرَ وحُرْمَتَها وذاقَ المرضَ ولمْ يَذُقْها فلما عاتَبُوهُ قال : «**إنه ليس بدواءٍ لكنه داءٌ**» [(٣)] .

---

(١) عَفَّ عَفًّا وعفافًا وعُفافةً بفتحهن وعِفةً بالكسر ، فهو عَفٌّ وعفيفٌ : كف عما لا يحل ولا يجمل كاستعف وتعفَّف ، ج أعِفَّاءٌ وهي عَفَّةٌ وعفيفةٌ ، ج عفائف وعفيفات .

قال في « تاج العروس » : ظاهر إطلاقه أن مضارعه بالضم ككَتَبَ يَكْتُبُ ، ولا قائل به بل هو كضَرَبَ يَضْرِبُ لأنه مضعف لازم ، وقاعدة مضارعه الكسر إلا ما شذ منه .

(٢) مثل يضرب لمن يصون نفسه في الضراء ولا يدخل فيما يدنسه عند سوء الحال ، «جمهرة الأمثال »لأبي هلالٍ العسكري (٣٥٩) .

(٣) لفظ حديثٍ رواه مسلم عن وائل بن حجر ـ رضي اللّه عنه ـ مرفوعًا كتاب : الأشربة ، باب : تحريم التداوي بالخمر .

أو سَلْ عنها : مَنْ رَفعَ يَدَهُ فلمْ يَضَعْها ، أو وَضَعَها فلمْ يَرْفَعْها ، فقالوا : « مَسْحُورٌ » فقال : « مَقْدُورٌ ، ومَا جُعِلَ شفاؤكم فيما حُرِّمَ عليكم » .

وسَلْ ، وسَلْ ، وما زال الخيرُ في هذه الأمةِ ، وإنما مثَّلْتُ لك ولم أحصُر .

وأمَّا كيفَ تكونُ فهي كسائرِ الصفاتِ تُجتَلَبُ : بكثرةِ مطالَعَةِ فضائِلِها ومنزلةِ أصحابِها وما صحَّ من جزائِها الدنيويِّ والأخرويِّ .

وكذلك بمطالعةِ مواقفِ الأعِفَّةِ وحكاياتِ الناسِ عنهم وعن أحَوالِهم، ثم مصاحبةِ من اتصَفوا بذلك فمن وجدتَّ منهم فعضَّ عليه بالنواجذِ ، وقبْلَ كلِّ هذا وبعدَه : تكلُّفُ العفةِ بالتعفُّفِ وهذا هو لُبُّ الأمْرِ .

قال صلى الله عليه وآله وسلم : « **من يستعفِفْ يُعِفُّهُ الله ومن يَسْتَغْنِ يغنِه اللهُ** »[1] .

وقال : « **إنَّما العلم بالتعلُّم وإنما الحِلْمُ بالتحلُّمِ ومن يتحرَّ الخيرَ يعطَهُ ومن يَتَوقَّ الشرَّ يُوقَهُ** »[2] .

وأما صَاحِبُ الموقفِ فهو من إذا ذُكِرَ ذُكِرتِ العِفَّةُ !!

---

(١) رواه البخاري عن حكيم بن حزام ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا كتاب : الزكاة ، باب : لا صدقة إلا عن ظهر غنى .

ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ مرفوعا ، كتاب : الزكاة ، باب : فضل التعفف والصبر .

(٢) ذكره الشيخ الألباني في : « السلسلة الصحيحة » عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعا (٣٤٢) وعزاه لابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١ / ٧٦) والخطيب في « تاريخه » (٩ / ١٢٧) .

وإذا ذُكِرَتِ العفةُ ذُكِرَ !!

الكريمُ ابنُ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ : يوسفُ بنُ يعقوبَ ابن إسحاقَ بن إبراهيمَ عليهم وعلى نبينا الصلاةُ والتسليمُ(١) .

* * *

وأما الموقفُ فَقَدْ ذَكَره اللهُ - عز وجل - في موضعٍ واحدٍ من كتابه الكريم ، فجاء الموقف بأدَقِّ التفاصيلِ كأوضحِ ما يكونُ ، لكنَّ هذا الأوضح هو الذي يَنْفَعُ الناسَ لا الذَي يُسَلِّيهم ويُشْبِعُ رغبةَ سَمَاعِ القصاصين عندهم .

فما من كلمةٍ من : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ ﴾ حتى : ﴿ **الْخَاطِئِينَ** ﴾ إلا ولها معنىً يُكَمِّلُ صورةَ العفةِ حتى تَصيرَ واضحةً جليةً مع نهايةِ الآياتِ .

وسترى هذا بنفسك في هذا الكتاب - إن شاء الله - فهو إنما يتناول الموقفَ بينَ أن : « أُغلِقَ البابُ وفتحَ » .

وهو موقفٌ حَرِيٌّ بكلِّ مسلمٍ أنْ يقرأهُ بل أنْ يدرسَه بل أنْ يحفظَه فالفتنُ تعْرِضُ للجميع .

والأنبياءُ ليسَ همْ لا يُبْتَلَوْن بل هم أشدُّ الناسِ ابتلاءً ، ولكنهم يخرجون من الفتنِ أفضلَ مما دخلوا فيها .

فكم من إنسانٍ أُغلِقَ عليه البابُ وفتحَ ثم لم يكنْ خُروجُه كخروجِ يوسفَ - عليه السلام - .

---

(١) رواه البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ، باب : قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ...** ﴾ الآية عن ابن عمر - رضي الله عنهما - مرفوعا .

وكم من إنسانٍ مَرِضَ وشُفِيَ ثُمَّ لم يكنْ خُروجُه من الابتلاءِ كخروجِ أيوبَ ـ عليه السلام ـ .

وهذا هو الحال مع كل نبي من الأنبياء.

قال تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب...**﴾ الآية [يوسف: ١١١].

والله هو الموفِّقُ والهادي إلى الصوابِ .

وها هو الكتابُ بين يديكَ آمنُ من حمام مكةَ ، فتقبَّلْهُ قَبولاً حسنًا واحلُبْ واشربْ وقل : « اللهمَّ بارك لنا فيه وزدْنا منه » ثم ادعُ لجامعِها بغفرانِ الذنوبِ وسترِ العيوبِ .

وأن يكونَ لمن علَّمهُ مثلُ ذلك وسائرِ المسلمينَ والحمدُ لله ربِّ العالمينَ.

وكتبه / أبو نوران حامد بن عبد الحميد

الاسْتعْفَافُ [1] والكَبْتُ

قال الله تعالى : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ الآية [النور : ٣٣]

هناكَ فارقٌ كبيرٌ بين :

« كبتٍ » الخبيثِ و « استعفافٍ » الطَّيِّبِ .

ومن الظلمِ البيّنِ ، والجنايةِ الشديدةِ على المعنى ، وضعُ أحدِهما موضعَ الآخرِ .

فالعفةُ : خلقٌ كريمٌ يمنعُ صاحبَهُ من إتيانِ الفواحشِ .

والكبتُ : إخفاءُ الإنسانِ ما لا يليقُ بهِ من نَزَعَاتهِ لغايةٍ دنيويةٍ كخوفِ الفضيحةِ أو العقابِ أو ما شابَهَ .

ففي كلٍّ منعٌ ولكنْ :

الاستعفافُ : منعٌ لطيفٌ على النفسِ

والكبتُ : منعٌ شديدٌ على النفسِ

فمَثَلُ « العفةِ » كمَثَلِ سيارةٍ أدرْتَ محرّكَها لكنك لم تتحركْ بها ، فهذا منعٌ لكنه هادئٌ أو قُلْ تأجيلٌ للحركةِ !!

---

(١) استعفافٌ على وزن استفعالٌ ، وهذا الوزن له ستةُ معان استعمل فيها منها الطلب ، فيكون معنى استعف : طلب العفاف بطلب أسبابه وما يعين ليتصف به . انظر : « شذا العرف » (ص٢٩) .

ومَثَلُ « الكبتِ » كمَثَلِ سيارةٍ أدَرْتَ محرّكها ثم زودتها بالوقودِ وفي نفسِ الآن زودتَّها بما يمنعُ حركتَها !!

فهناكَ صراعٌ بينَ ما يدفعُ وما يمنعُ .

ولهذا كان هذا الكبتُ شديداً على النفسِ ، ويعقُبُهُ ألمٌ من وجودِ المانعِ وعدمِ القدرةِ على إزالَتِهِ، وحزنٌ على فواتِ هذه الفرصةِ التي حُرِمَ منها!!

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - «مجموع الفتاوى» (١٩ / ٣٤):

« والإنسانُ إذا فسدت نفسُه أو مزاجُه يشتهي ما يضرُّه ويلتذُّ به ، بل يعشق ذلك عشقًا يُفسد عقلَه ودينَه وخلقَه وبدنَه ومالَه » .

وقد يؤدِي هذا إلى الانفجارِ الإباحي[١] الذي نسمعُ عنه بين ساعةٍ وأخرى .

وأما العفيفُ فحالُه يَسُرُّ ، فلا انفجارَ ولا دمارَ .

بل إنه وإن مَنَع نفسَه إلا أنه يَشْعُرُ بلذةِ حلاوةِ الإيمانِ في قلبهِ ، لأنه اجتنبَ ما حَرَّمَ الله .

فاستعفافُ المسلمِ عن الحرامِ ليسَ غمًّا ولا كمداً بل فرحةً وسروراً[٢] .

وبيانُ ذلك :

---

(١) مثال هذا ما حكاه الشيخ / أحمد محمد شاكر « كلمة الحق » (ص١١٩) بعنوان: (الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا) عما حصل في الجامعة المصرية. فراجعه للأهمية.

(٢) فالمسلم لا ينظر إلى هذا الميلِ أو هذه الرغبةِ في إروائه على أنها وحشٌ يدفعه، وهو أيضًا لا يُنكرها ولا يستقذرها ، وإنما يعلّقُها حتى يأتي وقتها المناسب في الحلال ، حيث يُؤجرُ ، فكما أنه لا يخالفُ سنةَ الله الشرعيةَ فهو أيضًا لا يُصَادم سنة الله الكونيَة. فلا إباحيةَ ولا رهبانيةَ .

أن ميلَ الرجلِ إلى المرأة أمرٌ جبلِّيٌّ فِطْرِيٌّ .

ينتجُ عن هذا الميلِ رغبةٌ في إروائِه .

كلا الأمرينِ ـ الميلِ والرغبةِ في الإرواءِ ـ مخلوقٌ في كلِّ الرجالِ طيبِهم و وخَبيثِهم ، عفيفِهم وفاجرِهم .

* فأما استعفافُ الطيِّبِ فهو أن يمنعَ الإرواءَ في الحرامِ حتى يأتيه الحلالُ فهو « تعليقٌ للإرواءِ لا غيرُ » .

والآيةُ التي معنا ، تحملُ هذا المعنى :

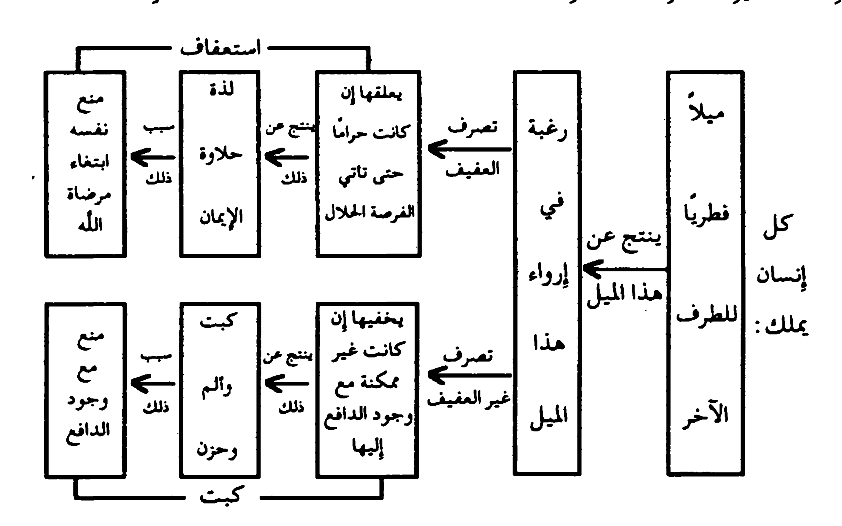
﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ** ﴾ : منعُ الإرواءِ في الحرامِ .

﴿ **الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا** ﴾ : سببُ المطالبة بالاستعفاف .

﴿ **حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ : تعليقٌ للإرواءِ حتى يأتي السبيلُ الحلالُ .

هذا عن العفيف .

* أما الخبيثُ فقد جعلَ الميلَ الجبليَّ والرغبةَ في إروائِه شيئًا واحدًا فمن طالَبَه بتعليقِ هذه الرغبةِ حتى يُغنِيَهُ اللهُ من فضلِه ، فَهِمَ منه أنه يطالِبُه بمسخِ صفةِ الرجولةِ فيه ، وأنَّ هذا تكليفٌ فوقَ الطاقةِ .



من هنا ـ ومن هنا فقط ـ يحلُو لِدُعاةِ التَّحَرُّرِ من الدينِ ومَنْ شايَعهم أن يُكْثِرَوا من ذِكْرِ هذهِ الكلمةِ : الكبتُ ، الكبتُ !!

بل ويمحون كلمةَ « الاستعفافِ » ويضعونَ بدلاً منها كلمةَ: « كبت » .

* * *

وهذا الاستبدالُ في الاسمينِ مقصودٌ لأمرين :

الأول : أن كلمة : « الكبتِ » توحي بأن الحالةَ مَرضيَّةٌ ، فيحاولُ السامعُ أن يستحضِرَ العلاجَ ، ولا علاجَ للحرمانِ والكبت إلا أن تُعْطِيَ المحرومَ مطلوبَه .

وهنا يَخرجُ علينا من يقولُ : لابد من الاختلاطِ في كلِّ مراحلِ التعليمِ وفي الشارعِ والبيتِ والعملِ حتى نُزِيلَ هذا الكبتَ، مع أن الواقعَ يكذِّبُ هذه النتيجةَ التي وصلُوا إليها .

فهاهم الذين طَبَّقُوا عليهم حالةَ الاختلاطِ هذه : لهم في كلِّ وادٍ فضيحةٌ ، وفي كلِّ مجتمعٍ ذبحةٌ[١] .

والأمـرُ الثاني : أنَّ كلمـةَ : «الكبت» تحملُ في مضمونِها العذرَ والتَّبْريرَ لمن خانته قوتُه ، وأنْفَذَ هذا الكبتَ وهذه الرغبةَ في غيرما أحلَّ اللهُ، فهو مسكينٌ ، مكبوتٌ ، الأمرُ فوقَ طاقَتِه .

والمذنبُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ أولُّ ما يطلبُ النجاةَ يطلُبُها في :

---

(١) والعجبُ كيف ينشغلُ هؤلاء بالكلام عن الكبت وعلاجِه ، ولا تراهم يَذْكُرُونَ عن الاختلاط شيئًا ؟ ـ بل ويَدْعُونَ إليه ـ وقد تواترتِ الأخبارُ عن أخطارِه وأضرارِه !!

« لم أفعلْ » فإنْ لم يُفْلِحْ كانت في : « لم استطعْ » .

مع أن المنعَ لابد منه ـ عندَ العقلاءِ ـ لعدمِ تمكُّنِ الإنسانِ من تحقيقِ كلِّ رغباتِه فيعلِّقُها حتى تسنحَ الفرصةُ لذلك ، وهذا يحدثُ ـ والحمد لله ـ عن غير تكلُّفٍ .

فلماذا هنا بالذات قيلَ : كبتٌ ومنعٌ وحرمانٌ ؟!!

يقول العلامةُ / أحمد محمد شاكر ـ رحمه الله ـ « كلمة الحق » (ص١٢٦) :

ثمَّ ما هذا الكبتُ الذي يزعمونَ ؟ ، والذي جرَتْ به أقلامُ الكتَّابِ ، واصطَنَعَتْه نفوسُهم المريضةُ الجاهليةُ ، تحريفًا للكلِمِ عن مواضعِه وإشاعةً للمنكَرِ إشاعةً محرمةً .

أليسَ هو العفة التي أمَرَ اللهُ بها في كتابه : ﴿ **وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ الآية ؟!!

بل التي أمرَ اللهُ بها في كلِّ دينٍ سماويٍّ ؟!! اهـ

* * *



الموقف إجمالاً

كما جاء في كلام الله عز وجل

وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ

بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ

إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ

وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن

يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن

كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ

مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ

مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي

لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ

ذُلُّ العشق لأصحابه

عجبًا للهوى وعشقِ الصُّوَرِ[1] .

إنَّ العاشقَ يصبحُ أسيرَ هواهُ !! وماذا يفعلُ الأسيرُ وَهُوَ مقيَّدٌ ممنوعٌ ؟!

قد حبسهُ عشقُهُ وقيَّدَهُ هواهُ فلا ينظرُ إلاَّ للوُجوهِ والأشْكالِ .

ولذا لا يَعْرِضُ العشقُ إلا لمن غَفَلَ عَنْ تأملِ حقائقِ الأشياءِ، وجَمَدَتْ هِمَّتُهُ عندَ إنسانٍ بعيْنِهِ ، يظنُّ أنَّ كلَّ الجَمالِ فيهِ ، وأنَّ الكمالَ لا يُجَاوِزُهُ إلى غيرِهِ .

* والهوى هوانٌ :

إنَّ الهوانَ هُوَ الهوى قُلِبَ اسْمُهُ ... فإذا هوِيتَ فقدْ لَقِيتَ هَوانا

* والهوى عَمَى : قال بعضُ من ابْتُلِيَ به :

كَمْ مِنْ دَنِيٍّ لَها قَدْ صِرْتُ أَتْبَعُهُ ... ولَو صحا[2] القلبُ عنها لكان لي تبعًا

فرضِيَ لنفسهِ بالدَّنيَّةِ ، طلبًا لمتعةٍ لحظِيَّةٍ .

ولو أن العاشقَ تفكَّرَ في عيوبِ من يعشقُهُ : لَعَلَّهُ أن ينتبه من غفلتِهِ، فإنَّ الاطلاعَ على العيوبِ يقْدَحُ في المحبةِ .

---

(١) العِشْقُ والمعْشَقُ كمقعد : عُجْبُ المحبِّ بمحبوبهِ ، أو إفراطُ الحبِّ ، ويكون في عفافٍ وفي دَعارةٍ ، أو عمي الحسِّ عن إدراك عيوبهِ ، أو مرضٌ وسْواسِيٌّ يجلبه إلى نفسه بتسليطِ فكرهِ على استحسانِ بعض الصُّورِ . من القاموس .

(٢) الصحْوُ : ذهاب الغيم والسُّكْرِ ، وترك الصِّبا والباطل . من القاموس .

لأن هذا المحبوبَ كغيْرِهِ من الناسِ بَلْ ربما كان دونَهم كما قد شاعَ عن قبحِ ليلى !!

* ثم وجهٌ آخرُ لمذلةِ العشقِ حيث يُحْبَسُ العاشقُ في لحظتِهِ ، فلا يرى إلا قضاءَ شهوتِهِ ولا ينظر إلى العواقبِ .

كعاقبةِ : الفضيحةِ أو إقامةِ الحدّ أو وعيدِ الآخرةِ وما يَتْبَعُ كلَّ ذلك .

ثم : الجزاءُ من جنسِ العَمَلِ :

مَنْ يَزنِ فِي قَوْمٍ بألْفَيْ دِرْهَمٍ   في بَيْتِهِ يُزْنَى بِرُبْعِ الدِّرْهَمِ
إنَّ الزنا دَيْنٌ إذا استَقْرضتَهُ   كان الوَفا مِن أهلِ بيتكَ فاعلمِ

وقد قيل : على قدْرِ النظرِ في العواقبِ يَخِفُّ العشقُ عن قلبِ العاشقِ.

* * *

غير أن للهوى سَكْرةً تحول بين الإنسانِ وبين التَّفكُّرِ في هذا.

قال اللهُ ـ عز وجل ـ عن قومِ لوطٍ ـ ولم يُذكرْ عشقُ الصور في القرآن إلا عنهم وعن زوجة العزيز ـ :

﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [١] .

---

(١) سورة : الحجر ، آية : (٧٢) .

قال الحافظ « الفتح » (١١ / ٣٦٩) : قال الراغب وغيره : السُّكْرُ حالة تعرض بين المرء وعقله، وأكثر ما تستعمل في الشراب المسكر ويطلق في الغضب والعشق .. إلخ كلامه ، وانظر « صيد الخاطر » (ص٢٠٤) .

* وخيرُ طريقٍ للوقايةِ من هذه السَّكْرَةِ أن تحملَ لواءَ : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا ﴾[١].

* وخيرُ نذيرٍ منها أنْ تمشِيَ في ظِلِّ :

« **إن الله لم يَجعلْ شفاءكم فيما حُرِّم عليكم** »[٢] .

وأنْ تَعَضَّ الأناملَ تَسْتَفِيقُ وأنتَ تَقولُ : « **لا يُجْتَنَى من الشَّوْكِ العِنَبُ** »[٣] .

فإنَّ الشَّهْوَةَ إذا فَارَتْ غَطَّتْ عينَ الفكرِ ، والهوى إذا غَلَبَ صَكَّ أُذُنَ العقلِ .

وهنا يُبْخَسُ العقلُ حَقَّهُ في صُنْعِ القرار ، ويَعْلُو صوتُ الطبيعةِ والحسِّ .

ويزدَادُ هذا الصوتُ ويَشْتَدُّ كلما ضَعُفَ داعِي الإيمانِ وَخَبَا نورُه .

ومِنْ هنا شُغِفَتْ امرأةُ العزيزِ بيوسفَ ـ عليه السلام ـ حبًّا ، وراودَتْهُ عن نفسِهِ .

* * *

---

(١) سورة : الأنعام ، آية (١٥١) والإسراء : آية (٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا مجزومًا به موقوفًا على عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ كتاب الأشربة ، باب : شراب الحلواء والعسل وقال عنه الحافظ : وأخرجه ابن أبي شيبة عن جرير عن منصور وسنده صحيح على شرط الشيخين .

(٣) جزء حديث ذكره الشيخ الألباني في : « السلسلة الصحيحة » (٢٠٤٦) عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ وعزاه لأبي نعيم في « الحلية » (١٠ / ٣١) وغيره .



فتنـــةُ التي

إذا أرادتْ بنتُ حواءَ أن تفتنَ ابنَ آدمَ ، فإنها لا تَعْدِمُ لذلك وسيلةً فالإرسالُ مبنيٌّ على وفْقِ :

« **ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النساءِ** »[1] .

والموجاتُ تُحْمَلُ على بساطِ التَزْيينِ والتَّخْييلِ على وِفقِ : « **ما من نظرةٍ إلا وللشيطانِ فيها مَطْمَعٌ** »[2] .

وقد خُلقَتِ المرأةُ ولها من الفنونِ ـ فنونِ الإغواءِ ـ ما يَجْري في عُرُوقها، عفيفةٌ : تَحْصُرُ ذلك فيما أحلَّ اللهُ ، وأخْرَى : « لا تَرُدُّ يَدَ لامِسٍ » .

فكيف الحالُ بملكةٍ بل وَمَعَ مَمْلُوكِها الذي ابتاعَهُ زوجُها بثمَنٍ بَخْسٍ !!

صبَّتْ عليه من فُنونِ الإغْواءِ صبًّا !!!

واعترَضتْهُ بِصِنْفٍ في ذَهَابِها وصِنْفٍ في إيَابِها !!!

---

(١) رواه البخاري ، كتاب : النكاح ، باب : ما يتقي من شؤم المرأة .
ومسلم ، كتاب : الذكر والدعاء ، باب : أكثر أهـل الجنة الفقراء ، كلاهما عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ مرفوعا .

(٢) جزء حديث ذكره الشيخ الألباني في : « السلسلة الصحيحة » (٢٦١٣) موقوفًا على عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وعزاه للبيهقي في « شعب الإيمان » (٢/١٢٦/٢) .

وهي إلى هنا محتفظةٌ بقسطٍ من إنسانيَّتها في أن تَطلبَ[١].

فَكأنها تَطْلُبُ منه أن يَطْلُبَ هُوَ .

وهَذِهِ هي المراودةُ[٢] وَجَمَعَتْ هذه المعانيَ كلمةُ : ﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾.

* وتعدِّي فعلِ : ﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ بحرف الجر : (عن) يَحْمِلُ معنى المخادَعَةِ والحيلَةِ الذي تَشُمُّهُ أيضًا في قولِ إخوةِ يوسفَ : ﴿سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ...﴾[٣] .

وَقَارِنْ بين المراودَتَيْنِ يحدثْ لك معنًى جديدٌ :

---

(١) كما هي سنة الله في كونه التي هي أن يكون الرجل هو الراغبَ والخاطبَ والبادئَ بالطلب ، بخلاف الزنا ـ والعياذ بالله ـ فإن الأمر فيه على العكس غالبًا ولا يخفَ عليك قولُ العليم الخبير: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا ...﴾ فبدأ بها ثم قولُه تعالى : ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا ...﴾ فبدأ به .

(٢) إذ هو مأخوذٌ من رَوَدَانِ الإبل في مشيتها ، تذهب وتجيءُ في رفق ثم اشتهر فيما يريد الرجال من النساء ، واستعمل في كل مطلوب يكون مصحوبًا بالحيلة : ومنه قول موسى ـ عليه السلام ـ : «لقد راودت بني إسرائيل ... » البخاري (٧٥١٧) ومن الأول : « وإني راودتها عن نفسها » ، في قصة أصحاب الغار ويأتي تخريجها إن شاء الله . وانظر : « أساس البلاغة » للزمخشري والقاموس ، والعجب : أن ترى من نساء المسلمات من تفعل مثل ذلك: من زيٍّ فاضحٍ وزينةٍ مُفْتِنَةٍ وروادنٍ مُتَصَنَّعٍ .
ثم تدعى أنها ما تفعل ذلك لا إغواءً ولا طلبا وإنما الجرى وراء : (والبس ما يعجب الناس). ويرحم الله زمانًا كانت غير العفيفة تتستر في زيِّ العفيفاتِ ، فقد صرنا في زمان تختفي العفيفة ـ بزعمها ـ في زي الكاسيات العاريات .
فلا تدري أين النِفايةُ من النَّقاوة . فالله المستعان .

(٣) سورة : يوسف ، آية : (٦١) وكذلك في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ..﴾ الآية سورة : القمر ، آية : (٣٧) .

راودَ « الإخوةُ » « الأبَ » عن « يوسفَ » .

راودتْ « المرأةُ » « يوسفَ » عن « نفسِ يوسفَ » .

فَهُمْ خَادَعُوا أباهم ليتمكنوا من يوسفَ رَغْمًا عن أبيهِ .

وهي خادعتْ يوسفَ لتتمكنَ من نفسِهِ رَغْمًا عنهُ .

وهذا غايةُ الظلمِ من الْمرأةِ للرَّجُلِ ، عندما تستعينُ بما خُلِقَ « فيه » على ما خُلِقَ « له » .

وهذا حرامٌ فقد أُمِرْنا أن : « **أقِرُّوا الطيرَ على مَكِنَاتِها** »[١] .

* وفِي كلمةِ : ﴿**الَّتِي**﴾ معنًى أَعْجَبُ :

فكلمةُ : « التي » اسمٌ موصولٌ للمؤنثة[٢] ، يَسْتَوِي في ذلك أنْ تكونَ الأنثى أتانًا[٣] أو إنسانًا .

وفي التعبير عن زُلَيْخَا زوجةِ عزيزِ مصرَ بمجرَّدِ كلمةِ : (التي) معنًى جميلٌ قَلَّ من ينْتَبِهُ إليه !! وهو أنَّ من أَرْخَى عنانَ الشهوةِ ، وتابَعَ نفسَهُ حيثُ هامتْ به، وأفرَطَ في النظرِ إلى الصُّورِ المسْتَحْسَنَاتِ ـ سواءٌ في

---

(١) رواه أبو داود ، كتاب : الضحايا ، باب في العقيقة عن أم كُرْزٍ ـ رضي الله عنها وصححه الشيخ الألباني في « صحيحه » (٢٤٦٠) .

(٢) الاسم الموصول من المعارف المبنية، إلا (اللذان) و(اللتان) فيعربان كالمثنى، ولا يجوز نزع الألف واللام للتنكير لأنها زائدةٌ ليست مُعَرِّفةً ، ولا يتمُّ إلا بصلة تعريفه يكون بها، وهو للعاقل وغيرِه ، صيغ ليتوصل به إلى وصف المعارف بالجمل . انظر لمزيدٍ : « التوضيح والتكميل » (١ / ١١٠) و« القاموس » : ل ت .

(٣) الأتان : الحِمارةُ ، والأتانة قليلة . من « القاموس » .

الحقيقةِ أَمْ مطبوعةً على صفحاتِ الأوراقِ[١] أو مُتحرِّكةً ـ قادَهُ ذلك إلى التقيُّدِ بطلبِ المتعِ ، وعدمِ الرضا بما هو أدنى مما تعوَّدَ عليه !! بل لا يرضى إلا بالزيادةِ تتبعُها الزيادةُ .

وبينما هو كذلكَ إذْ يصلُ حالُه إلى أنْ يعبدَ هواهُ من دونِ اللهِ !!!

أرأيتَ من اتخَذَ إلهَهُ هواهُ ؟!! كيفَ يكونُ ؟!!

إذا المرءُ أَعطَى نفسَهُ كُلَّ ما اشتهتْ ... ولم ينهَهَا تاقتْ إلي كُلِّ باطلِ
وساقتْ إليهِ الإثمَ والعارَ الذي ... دعتْهُ إليهِ من حلاوةِ عاجلِ

وأكثرُ ما يكونُ ذلك مَظِنَّةً : في الأمراءِ ، وهو في نسائهم أكثرُ إلا من رحمَ ربُّك وقليل ما هم[٢] .

وها هي زوجةُ العزيزِ : أنثى وامرأةٌ وملكةٌ ، إلا أنها في غفلةِ العقلِ وهَياجِ الحسِّ : نزلتْ مِنْ ملكةٍ إلى امرأةٍ .

ثم نزلت مِنِ امرأةٍ إلى أنثى .

فقد راودَتْ (كملكةٍ)

وغلَّقت الأبوابَ (كامرأة)

وقالت : هيت لك (كأنثى) .

---

(١) للشيخ / ابن عثيمين ـ حفظه الله ـ محاضرةٌ قيمة عن فتنة المجلات مطبوعة في قطع صغير.

(٢) وأبعد ما يكون : في الحكماء ، إذ يحكّمون العقلَ في الهوى ، وينظرون في العواقب فإن الحسَّ لا يرى إلا الحاضر .

وصدق من قال : وآفة العقلِ الهوى فمن علا ... على هواه عقلُه فقد نجا

فاستحقَّتْ ألا يُعَبَّرَ عنها في هذا السياقِ إلا بـ (التي) التي تصلح لكل أنثى .

فأين مُلْكُها فيما فَعَلَتْ ؟!!

وأين إنسانيتُها عندما هَوَتْ؟!!

فلا تعدو أن تكونَ (التي) ليس إلاَّ .

* * *

قُرْبُ الوِسَادِ[1]

قُرْبُ الوِسَادِ سببٌ للسوءِ والفحشاءِ .

ولا تَعْظُمُ المحنةُ والابتلاءُ حتى تَألفَ وتُؤلفَ ، فإن أخوفَ ما يكون الإنسانُ لحريقِ النارِ أقربُ ما يكونُ منها .

ولذا عَظُمَتْ المصيبةُ مع الجارَةِ ، عَنِ الأخرى البعيدةِ ، وفي كلِّ شرٍّ[2] وأوَّلُ خصمينِ يومَ القيامةِ : جاران .

وانظر في : **﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ. . . ﴾**[3] الآية وفي : « **وَفرقوا بينهم في المضاجِعِ** »[4] وفي : « **الحَمْوُ**

---

(١) الوِسَاد : المُتَّكأُ والمِخَدَّةُ ، كالوسادة . من « القاموس ».

وليس هذا هو المقصود وإنما الذي تلمحه من بين الكلمات القادمات .

(٢) رواه البخاري ، كتاب : التفسير ، سورة البقرة ، باب : قوله تعالى : **﴿فلا تجعلوا لله أندادا . . ﴾** الآية .

ومسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : كون الشرك أقبح الذنوب ، كلاهما عن عبد الله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعا .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ « مجموع الفتاوى (١٥ / ١٢٣) : « وكان ظلم الجار أعظم ، للحاجة إلى المجاورة » وقال : « والجيران يأمن بعضهم بعضاً ... وجاره يجب عليه أن يحفظ امرأته من غيره ، فكيف يفسدها ».

(٣) سورة : ص ، آية (٢٤) .

(٤) حديث رواه أبو داود ، كتاب : الصلاة ، باب : متى يؤمر الغلام بالصلاة عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده يرفعه وصححه الشيخ الألباني في « صحيحه » (٥٠٨) .

قال المناوي ـ نقلاً عن « عون المعبود » (٢ / ١١٥) ـ : « .... حذراً من غوائل الشهوة وإن كنَّ أخوات » .

المَوْتُ »[١] تلمحْ خيراً كثيراً .

* ومَثَلُ من لا يُبالي بقربِ الوسادِ، وحُصولِ الأُلفةِ ، كمَثَلِ من يُرَبِّي مُصيبتَهُ على عَيْنِه ، حتى إذا كَبُرَتْ وعَظُمَتْ داهمَتْهُ ، وقد قيل : سَمِّنْ كَلْبَكَ يأكُلْكَ[٢] .

فمن قدَّمَ ناراً من حَلَفٍ ، أو ألقى جذوةً في هشيمٍ .

ثم أحاطهما بيدِهِ ، فلم العجبُ إذا أكلَتِ النارُ الهشيمَ وآلمَتْهُ ؟!!

فمِنْ قائلٍ : (هذا) مثلُ أبيها .

إلى قائلٍ : (هذا) مثلُ أخيها .

حتى يكونَ (هذا) مثلَ زوجِها .

فلمَ العجبُ وكُلُّهُمْ (مثلُ) ؟!! وما هي إلاَّ ﴿**خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾[٣] التي تناقضُ ﴿**ولا تقربوا**﴾ .

* * *

* وقد كان من جملةِ حبائلِ الابتلاءِ التي حاصرتْ يوسف ـ عليه السلام ـ أنه كان في بيتِها مع دوامِ معاملتِها ورؤيتِه لها .

وإلا فإنَّ ابتلاءه ـ عليه السلام ـ كان على الذُّرْوةِ، واعْلَمْ إن كنتَ لا تعلمُ.

---

(١) حديث رواه البخاري ، كتاب : النكاح ، باب : لا يخلون رجل بامرأة .
ومسلم ، كتاب : السلام ، باب : تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها .
كلاهما من حديث عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً ـ

(٢) انظر : « الفاخر » لابن عاصم (١٢٦) .

(٣) سورة : البقرة ، آية : (١٦٨) .

وبه يجابُ على شخصٍ يقولُ : وأينَ نحنُ من صبرِ يوسفَ على فتنةِ النساءِ ؟! يعتذِرُونَ لأنفسِهم بذلك .

وبه أيضًا يُرَدُّ على غَمْرٍ يقول : صَبَرَ رجالٌ كصبرِ يوسُفَ !!

ويضرب لذلك سليمانَ بنَ يسارٍ[1] مثلاً .

بل ويقول : سليمان لم يَهِمَّ وقد هَمَّ يوسفُ !! يغْمِزُ بذلك في مرتبةِ النُّبوَّةِ .

والجوابُ على هذا، والردُ على ذاك هو أن نسألهم :

أين نحن من **فتنة** يوسفَ ؟!!

فقد كان شابًا ، والشبابُ من الاندِفاعِ بمكانٍ .

---

(١) قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ في « تفسيره (٩ / ١٦٩) : وإذا تقررت عصمته وبراءته ـ بثناء الله عليه ـ فلا يصح ما قال مصعب بن عثمان : إن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهًا ، فاشتاقته امـرأةٌ ، فسامته نفسها فامتنع عليها وذكَّرها ، فقالت : إن لم تفعل لأشَهّرنَّك ، فخرج وتركها فرأى في منامه يوسف ـ عليه السلام ـ جالسًا !!

فقال : أنت يوسف ؟

فقال : نعم ! أنا يوسف الذي هممت وأنت سليمان الذي لم تهم !!

فإن هذا يقضي أن تكون درجة الولاية أرفعَ من درجة النبوة ، وهو محال ولو قدَّرنا يوسفَ غيرَ نبيٍّ فدرجته الولاية ، فيكون محفوظًا كهو .

ولو غُلقت على سليمانَ الأبوابُ وروجع في المقال والخطاب ، والكلام والجواب مع طول الصحبة لخيف عليه الفتنة وعظيم المحنة والله أعلم . اهـ

وردها ـ أيضًا ـ شيخ الإسلام ـ « مجموع الفتاوى » (١٥ / ١٤٤ ، ١٤٥) برد قوي لكنه وقع عنده : مسلم بن يسار . ولم أجد القصة في « سير أعلام النبلاء » في ترجمة مسلم بن يسار (٤ / ٥١٠) بل في ترجمة سليمان بن يسار (٤ / ٤٤٦) وقال الحافظ الذهبي بعدها : إسنادها منقطع .

قال صلوات الله وسلامه عليه: « **إنَّ الشيخَ يملكُ نفسَهُ** »[١].

وكان جميلاً بل أُعطى شطرَ الحسنِ ، والحسنُ فتنةٌ لصاحبِ الصورة مثلِ رائيها ، حتي إنَّ الله تعالى اختارَ صورتَهُ لِتَكُونَ صورةُ المؤمنين في الجنةِ عليها[٢].

وابتُلِيَ لما بَلَغَ أشُدَّه فَلَيْسَ في حالِ الطفلِ ولا في حالِ العجزِ ، بل كان رجلاً بَيِّنَ الرجولية .

وهو غريبٌ والغريبُ لا يَخَافُ من الفضِيحَةِ مثلَمَا يكونُ ممن هو في أهلِهِ .

ومدعوًّا وليس داعيًا ، ومُؤَمّنًا وليس مخوَّنًا .

ومملوكًا وليس مالكًا، ولَوْ لَمْ تكن إلا هذه لَكَفَتْ، فكم من إنسانٍ راودَ الدُّمِيمَاتِ لِيتوصلَ بِهنَّ إلى المُلكِ والإمارةِ، ولكن:

الحر حُرٌّ وإن ألمَّ به الضـ ـــرُّ ففيه العفاف والأَنَفُ

ومجروحَ الفؤاد مَكْلُومَ النفسِ .

ومن ناحيةٍ أخرى :

فالداعيةُ ذاتُ مَنصِبٍ وجمالٍ !!

---

(١) ذكره الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٠٦) وعزاه لمسند الإمام أحمد (٢/١٨٥ ، ٢٢١) عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - مرفوعًا .

(٢) ذكره الشيخ الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٢٥١٢) بلفظ : « .. **فإن كان من أهل الجنة كان على نسخة آدم وصورة يوسف وقلب أيوب** » الحديث . وعزاه « للفوائد الصحاح» (١/١٣٠/٢) والطبراني في «الكبير» (٢٠/٢٨٠/٦٦٣) عن المقدام - رضي الله عنه - مرفوعًا .

وهذه وجدَها استحقَّ من قال لها : إني أخاف الله ، أن يُظَلَّ في ظِلّ الله يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّ الله[١] .

وداعيتُهُ سيدتُهُ !!

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ : فأما إذا دُعي ولو كانت الداعية خادمةً لكان أسرعَ مجيبٍ . فكيف إذا كانت الداعيةُ سيدتَهُ الحاكمةَ عليه، التي يخافُ الضَّرَرَ بمخالفتِها .؟!اهـ[٢]

والفِراشُ وثيرٌ، والحَريرُ كثيرٌ. والأبوابُ مغلَّقَةٌ والنَّجاةُ مُحَقَّقَةٌ .

ودِياثَةُ الزوجِ ظاهرةٌ ، والمرأة عليه قاهرةٌ[٣] .

وبعد كُلِّ هذا يُطلِقُ أحَدُهُمْ بصرَه على شمطاءَ دميمةٍ ، تمشي في الشارع ، يخافُ أن تنتبه أو ينتبه أحدٌ إليه، فإذا لِيمَ في ذلك ، وذُكِّرَ بعفةِ يوسفُ قال : وأين نحن من **صبر** يوسف ؟!!

بل قل : وأين نحن من **فتنة** يوسف ؟!!

* * *

---

(١) للحديث الذي أوله : « **سبعة يظلهم الله** » الحديث ، ومنهم رجل دعته امرأة ذاتُ منصب وجمال فقال : إني أخاف الله .

رواه البخاري ، كتاب : الأذان ، باب : من جلس في المسجد ينتظر الصلاة .

ومسلم ، كتاب : الزكاة ، باب فضل إخفاء الصدقة واللفظ له ، كلاهما عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا .

(٢) « مجموع الفتاوي » (١٥ / ١٣٨) .

(٣) سيأتي مزيد بيان لهذا إن شاء الله تعالى .

الإحْسَانُ

يَتَجَوَّزُ الناسُ في حَالِ خَفَائِهم واستتارهم ، مَا لا يكونُ على الملأ ، وكأنهم إنما يعبدونَ الناسَ لا ربَّ الناسِ .

فتراهم يستَخْفُونَ من الناسِ ولا يَسْتَحْيُونَ من اللهِ .

وهذا من المشاين التي عمَّتْ ، والناسُ بين مُستَقِلٍّ ومُسْتَكْثِرٍ .

فما شَمَّ رائحةَ الإحسانِ من تتحركُ نفسُه للحرامِ بمجردِ انفرادِها عن الناسِ .

وما راحَ رائحةَ اعتقادِ المراقبةِ من نَزَعَتْ نفسُهُ للحرامِ بمجردِ دُخولِ الظلامِ فإن المراقبة : « علم القلب بقرب الربِّ » .

إذا ما خَلَوتَ الدهرَ يومًا فلا تَقُلْ خلوتُ ولكنْ قلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسبَنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً ولا أن ما تُخْفِي - عليه - يغيبُ

وَوَرَعٌ في « خُلْوَةٍ » ، أحبُّ إلى اللهِ من صُراخٍ في « خُطْبَةٍ » .

فالخُلْوَةُ لها فضيلةٌ : « **ورجلٌ ذكرَ اللهَ خاليًا ففاضَتْ عيناهُ** »[1] .

فاحْفَظِ اللهَ يَحفظْكَ .

---

(١) وهو واحد من السبعة الذين هم في الحديث : «**سبعة يظلهم الله في ظله**» الحديث ، وقد سبق تخريجه .

واتقِ اللهَ حيثما كنتَ ، في سِرِّكَ وعَلَنِكَ .

حيثُ يراكَ الناسُ وحيثُ لا يَرَوْنَكَ .

وخَفْ من اللهِ بقدرِ قُرْبِهِ منك ، لا بقدْرِ قُرْبِكَ من الناسِ .

ولا تجعلِ اللهَ أهونَ الناظرينَ إليكَ فإنه : « **لا أحدٌ أغيرَ من اللهِ ولذلك حرَّمَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ** »[١] .

ووالله إنّ العبدَ ليُذنبُ الذنبَ بينهُ وبين اللهِ ، فيأبى اللهُ إلا أنْ يُعَامِلَهُ الناسُ وكأنما يعلمونَ عنه ما يُخْفِي .

وهذا من عدل ربِّ الأرضِ والسمواتِ .

فالله الله في الخلْواتِ !!

قال ابن عبد البر : كان بعضُ السلفِ يقولُ لأصحابه : زهَّدنا اللهُ وإياكم في الحرامِ زهدَ من قَدَرَ عليه في الخلوةِ فعلمَ أنَّ اللهَ يراهُ فتركَهُ من خشيته . اهـ[٢] .

* * *

والمقصودُ : أنَّ الاستتارَ بالظلامِ والحيطانِ طريقُ المعاصِي دائمًا أبدًا

---

(١) جزء حديث رواه مسلم، كتاب: التوبة ، باب : غيرة الله تعالى. عن عبد الله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا .

(٢) « جامع العلوم والحكم » (ص٢٥٦) .

وكأنَّ الرقيبَ قد غاب[١] .

ومن هذا الباب : غلَّقتِ امرأةُ العزيزِ الأبوابَ .

وكأنَّ المسكينةَ المتهالكةَ ظنَّتْ أنَّ استعصاءَ يوسفَ ـ عليه السلام ـ عليها إنما هو بسببِ خوفِه من زوجِها ، أو من الناسِ فسارعَتْ إلى إدخالِ الأمانِ عليه .

وأخذت تجري من باب إلى باب ، وتُحكِمُ[٢] غلقَ كلِّ بابٍ بكلِّ وسيلةٍ ، وكأنها تريدُ أن تَشعُر وتُشعِر أن هذه الأبوابَ جدرانٌ لا أبوابٌ .

---

(١) ولا أظنه يخفى عليك أن المجاهرةَ ليست حلاً لمن يُلام على الاستتار من الناس ويقع في المعاصي بينه وبين الله .

فالمجاهرة بالمعصية شر من الإسرار بها وفي كلٍّ شرٌّ ولذلك استحق المجاهر اسم الفجور ، قال شيخ الإسلام في « مجموع الفتاوى » (١٥ / ٢٨٦) : والفجور اسم جامع لكل متجاهر بمعصية أو كلام قبيح يدل السامع له على فجور قلب قائله اهـ.

وقد قال من لا ينطق عن الهوى ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : « **كل أمتي معافى إلا المجاهرين** » الحديث . بخ (٦٠٦٩) .

ولما وصف ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الحلَّ لمن تلومه نفسه على رؤية الناس له فقال : « **ما كرهت أن يراه الناس فلا تفعله إذا خلوت** » . « الصحيحة » (١٠٥٥) .

ولم يقل فجاهر به ، وهذا، بَيِّنٌ كالشمس ـ والحمدُ لله ـ لمن أراد الله به خيرا.

ولكن من لم يرد الله به خيراً تسمعه ـ وقد ليم على المجاهرة بالمعصية ـ يقول: (أنا ما خفتش من ربنا هاخاف منك) .

وصدق صلى الله عليه وآله وسلم : « **آخرُ ما أدرك الناسَ من كلام النبوة : إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت** » بخ (٣٤٨٣) فالله المستعان على هذا الخبث.

(٢) غلَّقَتْ على وزن فعَّلت وهذا الوزن يأتي لثمانية معاني منها : التكثير : في الفعل كجوَّل وطوَّف أو في المفعول كغلَّقت الأبواب أو في الفاعل كموَّتت الإبل .

انظر : « شذا العرف » (ص٢٧) و « مختار الصحاح » مادة : غ ل ق .

فالتكثير على ذلك في غلقت الأبواب إما هو في الأبواب أو في المغاليق التي عليها أو فيهما جميعًا والأخير أظهر. وانظر: « روح المعاني » (١٢ / ٣١٧) .

وما علمتْ أنها تُعاملُ رجلاً محسنًا يعبدُ اللهَ كأنه يراهُ!!

رجلاً يستوِي عندَهُ قُربُ الناسِ وبُعدُهُمْ، عِلمهم وجهلُهم، فهو إنما يخافُ اللهَ ، واللهُ يراهُ !!

ويَظَلُّ الكريمُ ابنُ الكرائِمِ على استعصائِهِ وتعالِيهِ مع كونِه تحت يدها، وتظَلُّ (التي) على إلحاحِها وتسفُّلِها مع كونِه تحتَ يَدِها .

ولسانُ حالِها يقولُ :

وزادني كَلَفًا في الحبِّ أن مُنِعَتْ وحَبُّ شيءٍ إلى الإنسانِ ما مُنِعَ

حتى وصلتْ إلى قاعِ القاعِ ، حيثُ (هيت)[1] وأخواتُها مِنْ هَنَاتٍ وزلاتٍ أُخَرْ .

حيثُ أشدَّ حالاتِ الإغواءِ ، وأحط الدركاتِ .

وهنا بدأتْ أعلى معارجِ العفةِ وأكملُ الحالاتِ .

* * *

(١) انظر لهذه الكلمة : التيسير في القراءات السبع ص١٠٤ وبصائر ذوي التمييز ٢/ ٣٦٢ وقال : « هيت لك : أي هَلُمَّ » . والمحتسب ١/ ٣٣٧ .

كَمَـــالُ الرُّجُــولَة

الرجولةُ وصفٌ ومعْنَى ، والذكُورةُ جِسمُ ومبْنَى .

فكلُّ رجلٍ ذكرٌ ، وليس كلُّ ذكرٍ رجلاً .

لعَمْرُك ما الفتيانُ أن تَنْبُتَ اللِّحى .

فالرجولةُ عِفَّةٌ والعفافُ رجوليَّة ، والمستقِلُّ من العفاف هو كذلك من الرجولية ، والمستكثِرُ من العفافِ هو كذلك من الرجولية. فلا تسمعْ إلا هؤلاءِ الذينَ « قَلَّبُوا » لك الأمورَ ، و« قرَّبُوا » لك الرجُولةَ على أنها « الانفلاتُ » و « التحرُّرُ » من كلِّ قيدٍ و« التعالِي » عن كلِّ نصحٍ .

واسمعْ :

تركَ يوسفُ ـ عليه السلام ـ امرأةَ العزيزِ في **الحضيضِ** وبدأَ هو من **القمَّةِ**.

فقال لها بلسانِ المقالِ : ﴿ **مَعَاذَ اللَّهِ** ﴾ .

وقال لها بلسانِ الحالِ : إنْ كُنْتِ ريحًا فقدْ لاقيتِ إعصاراً .

وكما أنها (راودتْ) و (غلَّقَتْ) و (قالتْ) وهنَّ : ثلاثُ قذائفَ حَضِيضِيَّةٍ .

فهو يقابلها بثلاثِ مُثَبِّطاتٍ رجاليةٍ قميَّةٍ :

قال : « معاذ الله »

: « إنه ربي أحسن مثواي »(١)

: « إنه لا يفلح الظالمون »

فالأُولَى : شديدةٌ ، قويةُ الأثرِ ، لكنَّها ضيقةُ النطاقِ لأنها لا تؤثّرُ إلا فيمن يعرفون الله .

والثانيةُ : أقلُ مفعولاً وأوسَعُ نِطاقًا ، فهي تخاطبُ من يعرفون الجميلَ ومن يعرفنَ حق الزوج .

والثالثةُ : أقلُ مفعولاً وأوسَعُ نطاقًا ، فهي تُذكِّرُ بالعواقبِ وتَرُدُّ الهوى إلى العقلِ .

فهذه الثلاث هي جِماعُ الوعظِ : التذكيرُ بالله والتذكيرُ بالجميل والتذكيرُ بسوء العاقبة وإن لم تَتَّعِظُ بِها المرأةُ فلا أملَ ، وإن لم ترجِعْ بها فالاستمرارُ معها خطرٌ على خَطَرٍ .

* * *

ويستفاد من هذه المواعظ الثلاث :

أ ـ أن الله عز وجل قريب من عباده يجيب مضطرَّهم ، ويعصم من شاء أن يرحمَهُ منهم .

ب ـ أن الاستعاذة في مثلِ هذه المواقفِ هو باللهِ ، ليس بالعرفِ ولا

---

(١) لما قال الرجل لامرأته : ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ قال يوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ كما قال في مواضع أخرى : ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ و﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ و﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ وخامسها وآخرها : ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ .
وما عدا ذلك من سائر المواضع في السورة فـ(رب) بمعنى الله والله أعلم .

العادة ولا بقول : « أنا لا أتأثر » ولا بكثرةِ الفاعلين ولا بعدمِ المنكرينَ ، الحلالُ ما أحلَّه اللهُ ، والحرام ما حرَّمه اللهُ .

ج - أن فتنَ النساءِ أضرُّ الفتنِ على الرجال على الإطلاقِ وفيها الحديث .

د - جوازُ تسمية المربي من البشر ربًّا .

هـ - مثال جيّدٌ للحديث : « **من لم يشكرِ الناسَ لم يشكرِ الله** »[1] .

و - أن نسبة الأمورِ إلى **أسبابِها** لا يُخلُّ بنسبتها إلى **موجدِها** ، قال أبو الأنبياءِ - عليه السلام - : ﴿ **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴾[2] ، وتمام هذا في موضعٍ آخرَ إن شاء اللّه .

ز - وقوعُ الصّلةِ من الناسِ بنيَّةٍ شرعيَّةٍ أو غيرِ شرعيةٍ يستويان في استحقاقِهم للشكرِ .

ح - مخاطبةُ الناسِ بما ينفعُهُم طالما أنه لا يخالفُ الصَّوَابَ وفيها كلامٌ لعليٍّ - رضي الله عنه - .

ط - أن الانتقالَ - في حالِ الجدالِ - من كلامٍ إلى ما بعده لا يَعْني أن الأوَّلَ كانَ على سبيلِ الخطأ ، ولنا في إبراهيمَ - في حديثه مع النّمرودِ - أسوةٌ حسنةٌ .

ي - تسميةُ بعضِ المعاصي ظلمًا .

يا - نسبةُ الفلاحِ للطائعينَ - بالمخالفةِ - وفيه الحديث : « **قد أفلَحَ من**

---

(١) رواه الترمذي ، كتاب: البر والصلة ، باب : ما جاء في الشكر ، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - مرفوعًا ، وصححه الشيخ الألباني في «صحيحه » (١٥٩٣).

(٢) سورة : الشعراء ، آية (٨٠) .

أسلم...»[١] الحديث .

يب ـ أن العبرةَ بالمآلِ وليس بالحالِ .

يج ـ مواجهةُ الأفعالِ بالأقوالِ ليس ـ بالضرورة ـ يكونُ « سلبيةً » فلكلٍّ مكانُهُ وهذا من الحكمة .

يد ـ أن تستفتَح على نفسِك من عملِ العامِلِ ردًّا على هذا العمل، وفيها شبه بقصة : « **ذاك الظَن بك يا أبا إسحاق**»[٢] وهو ما يسمى : « الجزاء من جنس العمل ».

يه ـ عدمُ كتمانِ الموعظةِ ولو في حالٍ يَظنُّ فيها الواعِظُ عدمَ الانتفاعِ ، كما قالت بنتُ عم « صاحبِ الغارِ » لهُ : « **اتقِ اللّهَ ولا تفضَّ الخاتمَ إلا بحقِّه**»[٣] ، فامتنع عنها .

يو ـ ومنها حسنُ الظنِّ بالله أن يأتيَ بالفرجِ ، ومنه قولُ أبي يوسفَ ـ عليهما السلام ـ : ﴿ **يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ** ﴾[٤] .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب : الزكاة ، باب : في الكفافة والقناعة ، عن عبد الله بن عمرو ، ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا .

(٢) رواه البخاري ، كتاب : الأذان ، باب : وجوب القراءة للإمام والمأموم .

ومسلم ، كتاب : الصلاة ، باب : القراءة في الظهر والعصر ، عن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ موقوفًا .

(٣) رواه البخاري ، كتاب : أحاديث الأنبياء ، باب : حديث الغار عن عبد الله ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعًا .

(٤) سورة : يوسف ، آية (٨٧) .

ز ـ عدمُ الإطالةِ في المواعظِ في مواضعِ الفتنِ طالما استفرغَ الإنسانُ كلَّ ما غلبَ عليه الظنُّ بأنه يُحدث اتعاظًا ، حتى إنه ـ عليه السلام ـ آثرَ التلميحَ على التصريحِ في كلِّ واحدةٍ من هذه الثلاثِ وكأنه يُعْلِمُها بالأمرِ لا يعظُها به .

* * *

صَرْفُ السُّوءِ عن المخلصينَ

في هذه الأحداثِ لا يَتَنَاطَحُ عنزَانِ في أنَّ امرأةَ العزيزِ قد همتْ بيوسفَ ـ عليه السلام ـ.

فليس بعد أَنْ (راودَتْ) و(غلَّقَتْ) و(قالتْ) في ذلك شكٌّ .

إنما الكلامُ : كيفَ صُرِفَ السوءُ عن يوسفَ ـ عليه السلام ـ ؟!!

والجواب :

* إما أنه لم يهمَّ بشيءٍ من الأصلِ لأنه رأى برهانَ ربِّه .

* وإما أنه هَمَّ ولَولا أنْ رأى برهانَ ربِّه لَفَعَلَ ما حرَّمهُ اللهُ، فيكون المقصودُ هنا هو مجردَ خاطرِ النفْسِ ، كما يرى الصائمُ الماءَ الباردَ فيخطُرُ بباله أنْ يشربَ منهُ ولكنَّهُ لا يفعلُ ، فهو ميلٌ جبلِّيٌّ لا يكادُ يدخل تَحتَ التكليفِ .

إمَّا هذا وإما ذاكَ وأما الثالثةُ فلا .

وإليك خلاصة المسألة :

* مدار الحديث في هذه المسألة إنما هو على (لولا) ودلالتِها على نفي وقوعِ الهمِّ لوجودِ البرهانِ[1] ، وذلكَ عن طريقِ الكلامِ عن :

---

(١) راجع لذلك : « الوجوه والنظائر » ، للدامغاني (٢/١١٦) و« بصائر ذوي التمييز » للفيروز آبادي (٤/٤٥٨) و « تاويل مشكل القرآن » لابن قتيبة (ص٥٤٠) و« التوضيح والتكميل » (٢/٣٣٢) و« البهجة المرضية » للسيوطي (ص١٦١) و« الصاحبي » (ص١٣٤) علاوة على كتب التفسير في هذا الموضع وبخاصة أبو حيان في « البحر المحيط » والشنقيطي في « أضواء البيان » .

حكمِ تقديمِ جواب (لولا) عليها :

تلتقي الطرقُ عند ثلاثةِ أقوالٍ :

١ ـ يجوز تقديمُ جوابِ لولا عليها وهو قولُ الكوفيينَ ، ومن أعلامِ البصريينَ: أبو العباس المبرد وأبو زيد الأنصاري ، وعَلَى هذا يكونُ جوابُ (لولا) في قوله تعالى : ﴿**لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾ متقدمٌ عليها وهو ﴿**وَهَمَّ بِهَا**﴾ وهذا معناه نفيُ الهمِّ بالكليةِ .

٢ ـ لا يجوزُ تقديمُ جوابِ (لولا) عليها ، وإنما جوابُها محذوفٌ يدلُّ عليه ما قبلَ (لولا) ، وهو قولُ جمهورِ البَصْريينَ .

وعلى هذا : يكونُ جوابُ (لولا) في قوله تعالى : ﴿**لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾ محذوفٌ لكنْ يدلُّ عليه قوله تعالى : ﴿**وَهَمَّ بِهَا**﴾ وهذا معناه ـ أيضا ـ نفيُ الهمِّ بالكلية .

٣ ـ جوابُ (لولا) محذوفٌ لا يدل عليه ما قَبْلَه .

أي : لولا أن رأى برهان ربه لأمضَى ما همَّ به .

وهذا معناهُ إثباتُ همٍّ ليوسفَ ـ عليه السلام ـ .

* فيصَير الأمرُ على قولين في الهمِّ :

الأول : نفيُ الهمِّ لوجودِ البرهانِ .

الثاني : إثباتُ الهمِّ مع نفيِ الفاحشةِ لوجودِ البرهانِ .

ثم إنَّ القولَ الثاني يتفرعُ عليه نوعَا الهمِّ الذي أثبتُوه :

١ ـ همَّ همًّا لا يدخلُ تحتَ التكليفِ .

٢ ـ همَّ همًّا بأن حلَّ السراويلَ وجلسَ منها مَجْلِسَ الخاتنِ إلى آخر ذلك .

فَصَارَ الأَمرُ على ثلاثةِ أقوالٍ :

الأول : وُجِدَ البرهانُ فلمْ يحدثِ الهمُّ أصلاً .

الثاني : هَمَّ همًّا لا يدخلُ تحت التكليفِ .

الثالث : همَّ وَفَعَل مقدِّمَات الفاحشَةِ .

وإليك فَرْشُ الأقوالِ قولاً قولاً ، والله المستعان .

* * *

القول الأول
لم يهمَّ ـ عليه السلام ـ من الأصل

* بعضُ كلامِ أهلِ العلمِ في هذا المذهَبِ وهو القائلُ بأنَّ يوسفَ عليه السلام لم يقعْ منه همٌّ أصلاً وأنَّه منفيٌّ عنه لوجودِ البرهانِ .

١ ـ قال الشيخُ الشنقيطي ـ رحمه الله تعالى ـ (٣/٥٣) : « وهُوَ أجْرَى الأقوالِ على قواعدِ اللغةِ العربيةِ ، لأنَّ الغالبَ في القرآنِ وفي كلامِ العربِ : أنَّ الجوابَ المحذوفَ يُذْكَرُ قبلَه ما يدلُّ عليه » . اهـ .

٢ ـ قال الشيخ أبو حيان ـ رحمه الله تعالى ـ : « والذي أختاره : أنَّ يوسفَ ـ عليه السلامُ ـ لم يقعْ منهُ همٌّ ألبتةَ، بل هو منفيٌّ لوجودِ رؤيةِ البرهانِ » .اهـ نقلاً عن « أضواء البيان » (٣/٥٣) .

٣ ـ قال الشيخ القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ (٩/١٦٥) : « واختلفَ العلماءُ في همِّه ، ولا خلافَ أنَّ همَّها كانَ المعصيةَ .

وأما يوسفُ فهمَّ بها ﴿ لَوْلا أن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ، ولكنْ لما رأى البرهانَ ما همَّ .

وهذا لوجوب العصمة للأنبياء ، قال اللهُ تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ .

فإذًا في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ أي : لولا أن رأى برهان ربه همَّ بها .

قال أبو حاتم : كنتُ أقرأ « الغريبَ » على أبي عبيدةَ فلمَّا أتيتُ على قولِه : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ ... الآية .

قال أبو عبيدة : هذا على التقديمِ والتأخيرِ ، كأنه أرادَ ولقد همَّت به ، ولولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها . اهـ .

٤ ـ وقال الشيخ أبو السعود ـ رحمه الله تعالى ـ (٤ / ٢٦٦) : وقد نصَّ أئمةُ الصناعةِ على أن (لولا) في أمثالِ هذه المواقِعِ جارٍ ـ من حيثُ المعنى لا من حيثُ الصيغة ـ مجرى التقييد للحكمِ المطلقِ ، كما في مِثل قوله تعالى : ﴿ **إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا** ﴾ [١] .

فلا يتحققُ هناكَ همٌّ أصلاً . اهـ .

٥ ـ وقال (٤ / ٢٦٦) : ألا ترى إلى ما سبقَ من استعصامه المنْبئ عن كمالِ كراهيتِهِ له ونفرتِهِ عنه وحكمِهِ بعدمِ إفلاحِ الظالمين؟!!

وهل هوَ إلا تسجيلٌ باستحالةِ صدور الهمِّ منه عليه السلام تسجيلاً مُحْكماً ؟!!

وإنَّما عبَّر عنه بالهمِّ لمجردِ وقوعِهِ في صحبةِ همِّها في الذِّكْرِ بطريقِ المشاكَلَةِ لا لشبَهِه به كما قيلَ .

ولقد أُشيرَ إلى تَبايُنِهما ، حيثُ لم يلزا في قرنٍ واحدٍ من التعبيرِ، بأن قيلَ: ولقد همَّا بالمخالطةِ أو همَّ كلٌّ منهما بالآخر.

وصدَّر الأوَّلَ بما يُقَرِّرُ وجودَه من التوكيد القَسَمي .

وعقَّبَ الثاني بما يعفُو أثَرَه من قوله : ﴿ **لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ** ﴾ . اهـ

٦ ـ وقال (٤ /٢٦٧) : عند قوله تعالى : ﴿ **كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ** ﴾ ـ : وفيه آيةٌ بيّنةٌ وحجةٌ قاطعةٌ على أنه ـ عليه السلام ـ لم يقعْ منهُ همٌّ بالمعصيَةِ ولا توجُّهَ إليها قطٌّ .

---

(١) سورة :الفرقان، أية : (٤٢) .

وإلاَّ لقيلَ : لنصرفَهَ عن السوءِ والفحشاءِ وإنَّما توجَّهَ إليهِ ذلك من خارجٍ، فصرفَهَ اللّهُ تعالى عنه بما فيه من مُوجِبَاتِ العفَّةِ والعِصْمَةِ ، فتأمَّلْ !! » . اهـ .

٧ ـ وقال (٤ / ٢٦٧) : عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ـ :

« وعلى كِلا المعنَيَيْنِ ـ يعني بفتح اللام وكسرها ـ فهو منتظِمٌ في سِلكِهِمْ ، داخلٌ في زمرتِهِمْ ، من أوَّلِ أمْرِهِ بقضيةِ الجملةِ الإسميةِ[1] ، لا أنَّ ذلكَ حَدَثَ لَهُ بعدَ أنْ لم يكنْ كذلكَ ، فانحسَمَ مادةُ احتِمَالِ صُدُورِ الهمِّ منه ـ عليه السلام ـ بالكليةِ . اهـ .

٨ ـ قال البقاعي في « نظم الدرر في تناسب الآيات والسور » : لكنه لما كان البرهان حاضرا لديه حضور من يراه بالعين لم يغطه وفورُ شهوة ولا غلبةُ هوى فلم يهمَّ أصلاً مع كونه في غاية الاستعداد لذلك؛ لما آتاه الله من القوة مع كونه في سن الشباب .

* * *

---

(١) الجملة الإسمية إنما تفيد ثبوت الحكم واستمراره والجملة الفعلية حدوث الحكم وتجدده.

انظر الرازي عند تفسير قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وأسرار البلاغة ص (٨٣).

مناقشةُ هذا القول

١ ـ لماذا هذا القول ؟!!

* « لأنَّ الغالبَ في القرآنِ وفي كلامِ العربِ : أنَّ الجوابَ المحذوفَ يُذْكَرُ قبْلَه ما يدلُّ عليه »[١] اهـ الشنقيطي (٣ / ٥٣)

٢ ـ هل هناك أمثلة لذلك ؟!!

* « قوله تعالى : ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[٢] .

أي : إِن كنتم مسلمينَ فتوكلوا عليه ، فالأولُ دليلُ الجوابِ المحذوفِ لا نفسُ الجوابِ » اهـ الشنقيطي (٣ / ٥٣) .

« وكقوله تعالى : ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣] .

أي : إِن كنتم صادقينَ فهاتوا برهانَكم » . اهـ الشنقيطي (٣ / ٥٣) .

« ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾[٤] فما قبْلَ (لولا) دليلُ الجوابِ .

أي : لولا أن رَبَطْنَا على قلبِها لكادت تبدِي به » . اهـ الشنقيطي (٣ / ٥٣) .

---

(١) وقال أبو محمد بن قتيبة : (... العرب إنما تحذف ما يدل عليه ما يظهر) . « القرطين » : (ص٥٣) ويمر عليك ـ إن شاء الله ـ قول الزمخشري (ص ٦٣) .

(٢) سورة : يونس ، آية : (٨٤) .

(٣) سورة : البقرة ، آية : (١١١) .

(٤) سورة : القصص ، آية : (١٠) .

« كما يقولُ جمهورُ البصريينَ في قولِ العربِ : أنتَ ظالمٌ إنْ فعلتَ فيُقَدِّرُونَه : إنْ فعلتَ فأنتَ ظالمٌ .

ولا يدلُّ قولهُ أنت ظالمٌ على ثبوتِ الظلمِ ، بل هو مُثْبَتٌ على تَقْدِيرِ وجودِ الفعلِ .

وكذلك هنا التقديرُ : لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها .

فكانَ وجودُ الهمِّ على تقديرِ انتفاءِ رؤيةِ البرهانِ لكنه وُجِدَ رؤيةُ البرهانِ فانتفى الهمُّ » . اهـ أبو حيان « أضواء البيان » (٣ / ٥٣) .

٣ ـ هل هناك قولٌ آخرُ في هذه المسألةِ ؟!!

* قد جُوِّزَ أن يكونَ : (وهم بها) جوابَ (لولا) جريًا على قاعدةِ الكوفيينَ في جوازِ التقديمِ .

فالهمُّ حينئذٍ على معناه الحقيقي فالمعنى : لولا أنه قد شاهدَ برهانَ ربه لهمَّ بها كما همَّت به ولكنْ حيثُ انتفَى عدم المشاهدة، بدليلِ استعصامِه وما يتفرعُ عليه ، انتفى الهمُّ أصلاً . اهـ أبو السعود (٤ / ٢٦٦) .

٤ ـ ولماذا اختلف في ذلك ومن أين جاءَ القولُ الأخيرُ ؟!!

* « لا يقومُ دليلٌ على امتناعِ ذلكَ ، بل صريحُ أدواتِ الشروطِ العاملةِ مختَلَفٌ في جوازِ تقديمِ أجوبَتِها عليها . اهـ أبو حيان « أضواء البيان » (٣ / ٥٤) .

٥ ـ فما الردُّ على قولِ الزجاجِ : ولو كانَ الكلامُ (ولهم بها) كان بعيداً ، فكيف مع سقوطِ اللامِ ؟!!

* « لا التفاتَ إلى قول الزجاجِ . ولو كان الكلامُ ؛ ولهم بها كان بعيداً، فكيف مع سقوط اللام ؟ لأنه يُوهمُ أن قوله : (وهم بها) ، هو جوابُ (لولا) ونحن لم نقلْ بذلك ، وإنما هو دليلُ الجوابِ . وعلى تقديرِ أن يكونَ نفسَ الجوابِ فاللامُ ليست بلازمة ، لجوازِ أن يأتيَ جوابُ (لولا) إذا كان بصيغةِ الماضي باللام، وبغير لامٍ ، تقول : لولا زيدٌ لأكرمتك ، ولولا زيدٌ أكرمتك، فمَنْ ذَهَبَ إلى أن قوله : (هم بها) نفسُ الجواب لم يبعد . اهـ أبو حيان « أضواء البيان » (٣ / ٥٣).

٦ ـ وما الردُّ على قولِ ابن عطيةَ[١] : وهذا قولٌ يرده لسان العرب وأقوال السلف ؟!!

* « أما قوله : يردُّه لسانُ العربِ فليس كما ذكر ، وقد استدلّ من ذهب إلى جواز ذلك بوجوده في لسان العرب ، قال الله تعالى : **﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾** فقوله : **﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾** إما أن يتخرج على أنه الجواب على ما ذهب إليه ذلك القائل ، وإما أن يتخرج على ما ذهبنا من أنه دليلُ الجوابِ ، والتقدير : لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به .

وأما أقوال السلفِ : فنعتقد أنه لا يصحُّ عن أحدٍ منهم شيءٌ من ذلك؛

---

(١) وقال به ـ أيضاً ـ الطبري (١٢ / ١١٠) ـ بعد أن ذكر من تأولوا الهم بالضرب ومن نفوا الهم بالكلية ـ : ويفسد هذين القولين أن العرب لا تقدم جوابَ (لولا) قبلها : لا تقول : لقد قمت لولا زيد ، وهي تريد لولا زيد لقد قمت .
هذا مع خلافهما جميع أهل العلم بتأويل القرآن الذين عنهم يؤخذ تأويله اهـ كلامه وأيده ابن كثير (٢ / ٦١٧) .

لأنها أقوالٌ متكاذبةٌ يناقضُ بعضُها بعضًا ، مع كونها قادحةً في بعضِ فساقِ المسلمينَ فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة » اهـ أبو حيان « أضواء البيان » (٣ / ٥٤) .

٧ ـ وما معنى قولِ يوسفَ إذن : ﴿**وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**﴾[١] ؟!!

* « استعانَ باللهِ ودعاهُ حتى يثَبِّتهُ على العفةِ ، فتوكَّلَ عليه أنْ يصرفَ عنه كيدهنَّ وصَبَرَ على الحبسِ »[٢] اهـ شيخ الإسلام .

« فالمخلصُ لا يكونُ مخلصًا مع توكُلِه على غير اللهِ ، فإنَّ ذلك شِرْكٌ .

ويوسفُ لم يكنْ مشركًا لا في عبادته ولا توكُّله ، بل قد توكَّلَ على ربه في فعل نفسهِ بقوله : ﴿**وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ »[٣] اهـ شيخ الإسلام .

٨ ـ وما الرد على الزمخشري في تقديره الجواب المحذوف بـ (لخالطها) ؟!!

* يرى الزمخشريُ أنَّ الجوابَ محذوفٌ يدلُّ عليه قولُهُ تعالى : ﴿**وَهَمَّ بِهَا**﴾ لكنه قدَّرهُ بـ : (لخالطها) ، فيُصْبِحُ معنى الكلامِ عندهُ : لولا أن رأى برهان ربه لخالطها .

وهاك كلامَه بنصّه : (٢ / ٤٣٨)

﴿**لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾ : جوابُهُ محذوفٌ تقديرُه : لولا أن رأى برهان ربه لخالطها فحُذِفَ .

---

(١) سورة : يوسف ، آية : (٣٣) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (١٥ / ١٣١) .

(٣) « مجموع الفتاوى » (١٥ / ١١٤) .

لأن قوله : ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ يدلُّ عليه ، كقولِكَ : هممتُ بقتلهِ لَوْلا أني خفت اللّهَ . اهـ كلامه .

فهو وإن كانَ مع الفريقِ القائلِ: المحذوفُ يدلُّ عليه المذكورُ.

إلا أنهُ مع القائلينَ : البرهانُ إنما منعَ يوسفَ من المخالطةِ لم يمنعْهُ من الهمِّ.

ولا أعلمُ أحداً جمع القولينِ إلا هو .

ثمَّ إنه ضرب لذلك مثلاً: هممتُ بقتْلِهِ لولا أني خفت الله.

وكدتُ أركنُ إلى هذا القولِ شيئًا كثيراً ، بعد أنْ رأيْتُهُ أقوى ما قِيلَ - في رأْيِي - في الردِّ على القائلينَ بنَفْيِ الهمِّ وهو الذِي أميلُ إليه .

كدتُ ولكنْ جاءَنِي مِنْ خاطِري - بفضل الله عز وجل - ما يَرِدُ على كلامِهِ ولم أجدْ له إجابةً .

والإيراد هو:

قول القائل: هممتُ بقتلِهِ لولا أني أخافُ اللّهَ.

معناه : لولا أني أخاف الله لقتلْتُهُ .

فيكون خوفُ اللهِ منعَ مِنَ القتلِ لا مِنَ الهمِّ . فتنبه !!

فإذًا أَرَدْنَا أن نطبّقَ هذا الكلامَ على الآيةِ لما انطَبَقَ .

فإن المثالَ المذكورَ : فيه فعلان الهمُ والقتلُ .

وإنما يكون صوابًا لو كانت الآية : وهم بمخالطتها لولا أن رأى برهان ربه .

فالآيةُ ليس فيها إلا فِعْلٌ واحدٌ : الهمُّ فقطْ . والله أعلم وراجع الشنقيطي : (٣/٥٣) .

٩ ـ إذن فلماذا قال يوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[١] ؟!!

* « إن نفسَ يوسفَ عليه السلام كانت من أزكى النفوسِ، فكيف أن يقول : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ ؟!!

واللهُ يعلمُ أن نفسَه بريئةٌ ليست آمارةً بالسوءِ بل نفسٌ زكيةٌ من أعظم النفوسِ زكاءً .

والهمُّ الذي وقع كان زيادةً في زكاءِ نفسه وتقواها » . اهـ شيخ الإسلام[٢] .

« والمقصود هنا أن ما رحم ربي من النفوسِ ليست أمارة ، وإذا كانت النفوسُ منقسمةً إلى : مرحومةٍ وأمَّارةٍ ، فقد عَلِمْنا قطعًا أن نفسَ امرأةِ العزيزِ من النفوسِ الأمارةِ بالسوءِ .

لأنها أَمَرَتْ بذلك مَرةً بعد مرةٍ، وراودتْ، وافترتْ، واستعانتْ بالنسوةِ، وسجنَتْ ، وهذا من أعظمِ ما يكونُ من الأمرِ بالسوءِ .

وأما يوسفُ عليه السلام فإنْ لم تكنْ نفسُه من النفوسِ المرحومةِ عن أن تكونَ أمارةً : فما في الأنفسِ مرحومٌ » . اهـ شيخ الإسلام[٣] .

---

(١) سورة : يوسف ، آية : (٥٣) . ومن القائلين بذلك : ابن قتيبة ـ رحمه الله تعالى ـ « تأويل مشكل القرآن » (ص ٤٠٣) ولم يحك ابن جرير ـ رحمه الله تعالى ـ سواه .

(٢) « مجموع الفتاوى » (١٥/١٣٩) .

(٣) « مجموع الفتاوى » (١٥/١٤٣) .

« وإذا كان الأمرُ في يوسفَ كذلك ، كان ما ذُكِرَ من قوله : ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي** ﴾ إنما يناسبُ حالَ امرأةِ العزيز، لا يناسبُ حالَ يوسفَ فإضافةِ الذنوبِ إلى يوسفَ في هذه القضيةِ : فرْية على الكتابِ والسنةِ ، وفيه تحريفٌ للكلمِ عن مواضعِهِ » اهـ شيخ الإسلام[1] .

١٠ ـ فلماذا جاء الكلامُ على هذا النظَمِ ، أعني في صورة الشرطيةِ؟!!

※ « فائدة هذه الشرطيةِ: بيان أن امتناعَ يوسفَ عليه السلام لم يكنْ لعدَمِ مساعدةٍ من جهةِ الطبيعةِ ، بل لمحضِ العفةِ والنزاهةِ مع وُفُورِ الدواعِي الداخليةِ ». اهـ أبو السعود (٤ / ٢٦٦) .

※ « قدم ما يدل على جواب الشرط ليكون أول ما يقرع السمع ما يدل على أنه كان في غاية القدرة على الفعل وأنه ما منعه منه إلا العلم بالله ». اهـ البقاعي

* * *

---

(١) « مجموع الفتاوى » (١٥ / ١٤٩) وانظر « التفسير القيم » (ص٣١٦) وابن كثير (٢ / ٦٢٦) وأورد الشيخ الألباني في « الضعيفة » (١٩٩١) عن أنس ـ مرفوعًا ـ : قرأ ـ اي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ هذه الآية، ﴿ **ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ** ﴾ قال : لما قالها يوسف ـ عليه السلام ـ قال له جبريل ـ عليه السلام ـ : يا يوسف اذكر همَّك ، قال : ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي** ﴾ .

وقال الشيخ : منكر ـ ثم قال ـ : وهذا هو الصواب : الوقف ، ورفعه باطل فإنه مخالف لسياق القصة في القرآن .

القول الثاني
همَّ عليه السلام همًّا لا يدخلُ تحت التكليفِ[1]
هَمَّ وما ثَمَّ لأن العناية من ثَمَّ

مناقشةُ هذا القول :

١ - لماذا هذا القول ؟!!

* « قال بعضُ أهلِ الحقائقِ: الهمُّ همانِ: همٌّ ثابتٌ: وهو إذا كان معه عزمٌ وعَقْدٌ ورضًا ، مثل همِّ امرأةِ العزيزِ والعبدُ مأخوذٌ به.

وهمٌّ عارضٌ : وهو الخطرةُ وحديثُ النفسِ من غيرِ اختيارٍ ولا عزمٍ مثلَ همِّ يوسفَ - عليه السلام - ، والعبدُ غيرُ مأخوذٍ به مالم يتكلمْ به أو يعمل » . اهـ البغوي (٣ / ٢٧٤)

٢ - فما معنى وهمَّ بها على هذا القولِ ؟!!

* « هم بها بمخالطتها أي : مالَ إليها بمقتضى الطبيعةِ البشريةِ وشهوةِ الشبابِ وقَرَمه[2] ، ميلاً جبلّيًا لا يكادُ يدخلُ تحتَ التكليفِ ، لا أنه قصَدها قصداً اختياريًا » . اهـ أبو السعود (٤ / ٢٦٦) .

---

(١) انظر : أيضًا - : فتوى (٤٤٨٨) للجنة الدائمة بالسعودية . وقال العلامة النسفي: (همت به) هم عزم (وهم بها) هم الطباع مع الامتناع.

(٢) القَرَمُ ، محركة : شدة شهوة اللحم ، وكثر حتى قيل في الشوق إلى الحبيب. من « القاموس» .

٣ ـ مزيدٌ من البيانِ ؟!!

* « الإرادةُ الجازمةُ توجبُ أنْ يفعلَ المريدُ ما يقدرُ عليه من المرادِ، ومتى لمْ يفعلْ مقدُورَه لم تكنْ إرادةً جازمةً بل يكونُ همًّا .

ومن همَّ بحسنةٍ فلمْ يفعَلْها لم تكتبْ عليهِ فإنْ تركَها للهِ كُتِبَتْ له حسنةً .

ولهذا وقعَ الفرقُ بين همّ يوسفَ عليه السلام وهمِ امرأةِ العزيز »[١] . اهـ شيخ الإسلام .

٤ ـ وما أمثلة ذلك ؟!!

* همَّ بنو حارثةَ وبنو سلمـةَ بالفرارِ يومَ أُحُدٍ كهمّ يوسفَ ـ عليه السلام ـ هذا .

بدليلِ قولِه : ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[٢] لأن قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ يدلُّ على أنَّ ذلكَ الهمَّ ليس معصيةً لأن إتْباعَ المعصيةِ بولايةِ اللهِ لذلك العاصي ، إغراءٌ على المعصيةِ » اهـ الشنقيطي . (٣/ ٥٣) .

« وقد يخطُرُ بقَلْبِ المرءِ وهو صائمٌ شُرْبُ الماءِ البارِدِ وتناولِ الطعامِ اللذيذِ فإذا لم يأكُلْ ولم يَشْرَبْ ولمْ يصمّمْ عَزْمَهُ على الأكلِ والشربِ لا يؤاخذُ بما هَجَسَ في النفس » . اهـ القرطبي عن أبي نصر القشيري (٩/ ١٦٧) .

---

(١) « مجموع الفتاوى » (٦/ ٥٧٤) .

(٢) سورة : آل عمران ، آية : (١٢٢) .

القول الثالث

همَّ ـ عليه السلام ـ بأن فَعَلَ مقدماتِ الفاحشةِ

﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ﴾

مناقشةُ هذا القولِ :

١ ـ لماذا هذا القول ؟!!

* « قيل : إن همَّ يوسفَ ـ عليه السلام ـ كان معصيةً وأنَّه جلسَ منها مَجْلسَ الرجلِ من امرأتِهِ ، وإلى هذا القولِ ذهبَ معظمُ المفسرينَ وعامَّتهم » اهـ القرطبي (٩ / ١٦٦) .

٢ ـ أليسَ هذا القولُ هو ظاهرُ الآية ؟!!

* قولُه تعالى : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ الآية ، ظاهرُ هذه الآيةِ الكريمةِ قد يفهمُ منه أن يوسفَ ـ عليه وعلى نبيّنا الصّلاة والسّلام ـ همَّ بأن يفعلَ مع تلك المرأةِ مثل ما همَّتْ هي به منه ؛ ولكن القرءانَ العظيمَ بين براءته ـ عليه الصلاة والسلام ـ منَ الوقوعِ فيما لا ينبغي حيثُ بيَّن شهادةَ كلِّ مَنْ له تَعَلُّقٌ بالمسألةِ ببراءته ، وشهادةَ الله له بذلك واعترافَ إبليسَ به .

أما الذين لهم تعلُّقٌ بتلك الواقعةِ فهُمْ : يوسفُ ، والمرأةُ ، وزوجُها ، والنسوةُ ، والشهودُ .

أما جَزمُ يوسفَ بأنه بريءٌ من تلك المعصيةِ فَذَكَرَهُ ـ تعالى ـ في قوله :

﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ ، وقوله : ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ الآية .

وأما اعترافُ المرأة بذلك ففي قولها للنسوة : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ ، وقولها : ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ .

وأما اعترافُ زوجِ المرأة ، ففي قوله : ﴿قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

وأما اعترافُ الشهود بذلك ففي قوله : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الآية .

وأما شهادةُ الله جلّ وعلا ببراءته ، ففي قوله : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ .

قال الفخرُ الرازي في « تفسيره » : قد شهدَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ على طهارته أربعَ مراتٍ :

أولَها : ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ﴾ واللام للتأكيد والمبالغة .

والثاني قوله : ﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾ ، أي : وكذلك لنصرف عنه الفحشاء .

والثالث قوله : ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ ، مع أنه ـ تعالى ـ قال : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ .

والرابع قوله : ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾، وفيه قراءتان : قراءةٌ باسمِ الفاعلِ .

وأخرى باسمِ المفعولِ . فورُودُه باسم الفاعل يدلّ على كونه آتيًا بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص.

ووُرودُه باسمِ المفعولِ يدلّ على أن اللّهَ ـ تعالى ـ استخلَصَهُ لنفسهِ ، واصطفاهُ لحضرتِه . وعلى كلا الوجهين فإنه من أدلّ الألفاظِ على كونه منزهًا عما أضافوه إليه . اهـ من تفسير الرازي

ويؤيّدُ ذلك قولهُ تعالى : ﴿**قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾ .

وأما إقرارُ إبليس بطهارةِ يوسفَ ونزاهتـه ، ففي قولـه ـ تعالى ـ: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾، فأقرَّ بأنه لا يمكنُهُ إغواءُ المخلصينَ ، ولا شكّ أن يوسفَ من المخلصينَ ، كما صرّح تعالى به في قوله : ﴿**إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ ، فظهرت دلالةُ القرءان من جهاتٍ متعدّدة على براءته مما لا ينبغي . اهـ الشنقيطي (٣ / ٤٩) .

٣ ـ وماذا أيضًا ؟!!

* « وقد شهدَتْ النسوةُ لَهُ أنهنَّ ما علمنَ عليه من سوء ، ولو كان قد بَدَتْ منه هذه المقدمات لكانتِ المرأةُ قد رأَتْ ذلك ، وهي من النسوةِ اللاتي شَهِدْنَ وقُلْنَ ما عَلِمْنا عليه من سوء ، وقالت مع ذلك : ﴿**وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ**﴾ وقالت : ﴿**أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ**﴾، وقولُه : ﴿**سوء**﴾ نكرةٌ في سياق النفي ، فدلَّ ذلك على أن المرأةَ لم ترَ منه سوءً ، فإن الهمَّ في القلبِ لم تطلعْ عليه ، ولو اطلعتْ عليه فإنه إذا تركَهُ لله كان حسنةً ، ولو تركَهُ مطلقًا لم يكن

حسنة ولا سيئةً ، فإنه لا إثم فيه إلا مع القول أو العمل[١] اهـ شيخ الإسلام .

؛ - وهذا الذي نُقِلَ عنِ السَّلَف[٢] ؟!!

* ليس هذا منقولاً نقلاً يُصَدَّقُ به ، فإن هذا لم ينقلْ عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومثل هذه الإسرائيليات إذا لم تنقل عن النبي ﷺ لم يُعْرَفْ صِدْقُها ، ولهذا لا يجوزُ تَصْديقُها ولا تكذيبُها إلا بدليل ، والله تعالى يقول في القرآن : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ فدلَّ القرآنُ على أنه صُرِفَ عنه السوءُ والفحشاءُ مطلقًا ، ولو كان قد فَعَلَ صغيرةً لتابَ منها : والقرآنُ ليس فيه ذكر توبَتِهِ ، ومن وَقَعَ منه بعضُ أنواعِ السوءِ والفحشاءِ لم يكنْ ذلك قد صُرِفَ عنه ، بل يكونُ قد وَقَعَ وتابَ الله عليه منه ، والقرآنُ يدُلُّ على خلافِ هذا[٣] اهـ شيخ الإسلام .

« وهذه الأقوال منقسمةٌ إلى قسمين :

قسمٌ لم يَثْبُتْ نقله عمن نُقِلَ عنه بسندٍ صحيحٍ ، وهذا لا إشكال في سقوطِه .

وقسمٌ ثبتَ عن بعضِ من ذُكِرَ ، وَمَنْ ثَبَتَ عنه منهم شيءٌ من ذلك ، فالظاهرُ الغالبُ على الظنِّ ، المزاحمُ لليقينِ : أنه إنما تلقَّاه عن الإسرائيليّاتِ ؛ لأنه لا مجالَ للرأي فيه ، ولم يُرْفَعْ منه قليلٌ ولا كثيرٌ إليه صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) « مجموع الفتاوى » (١٧/ ٣١) .

(٢) هذه الآثار ذكرها الطبري (١٢/ ١٠٩) وابن عطية (٧/ ٤٩٧) وابن الجوزي في زاد المسير (٤/ ٢٠٨)

(٣) « مجموع الفتاوى » (١٧/ ٣٠) .

وبهذا تَعْلَمُ أنه لا ينبغي التجرُّؤ على القولِ في نبيِّ الله يوسفَ بأنه جلسَ بين رجلَيْ كافرةٍ أجنبيةٍ ، يريدُ أن يزنِيَ بها ؛ اعتماداً على مثل هذه الروايات ، مع أن من الرواياتِ المذكورةِ ما تلوحُ عليه لوائحُ الكذبِ ؛ كقصةِ الكفِّ التي خرجَتْ له أربعَ مراتٍ ، وفي ثلاثِ منهنَّ لا يُبالي بها ، لأن ذلك على فرضِ صِحَّتِهِ فيه أكبرُ زاجرٍ لعوامِّ الفساقِ ، فما ظَنُّك بخيارِ الأنبياءِ»؟! اهـ أبوحيان نقلاً عن أضواء البيان (٣/٥٩) .

٥ ـ وماذا أيضاً؟!!

* « والقرآنُ قد أخبَرَ عن يوسفَ من الاستعصامِ والتقوى والصبرِ في هذه القضيةِ مالم يَذْكُرْ عن أحدٍ نظيرُه .

فلو كان يوسفُ قد أذنبَ لكانَ إمَّا مصراً وإمَّا تائبًا .

والإصرارُ مُمْتَنِعٌ فتَعَيَّنَ أن يكونَ تائبًا ، واللهُ لم يذكرْ عنه توبةً في هذا ولا استغفاراً ، كما ذَكَرَ عن غيرِه من الأنبياءِ »[1]. اهـ شيخ الإسلام .

٦ ـ فماذا عمَّنْ أوَّلَ الهمَّ بالضربِ[2] ؟!!

* تأويل الهمِّ بأنه همٌّ بضربها ، أو همَّ بدفعِها عن نفسِهِ كلُّ ذلك غيرُ ظاهرٍ بل بعيدٌ عن الظاهرِ ولا دليلَ عليه . اهـ الشنقيطي (٣/٥٣) .

* * *

(١) « مجموع الفتاوى » (١٥/١٤٩) .

(٢) ممن أوَّل الهَمَّ بالضرب : « منار » (١٢/٢٢٩) وراجع ـ أيضًا ـ في الرد عليهم : « تأويل مشكل القرآن » (ص٤٠٤) والفتوى (٤٤٨٨) اللجنة الدائمة بالسعودية ومر عليك رد ابن جرير ـ رحمه الله تعالى ـ هامش ص (٥٥) .

خلاصة بحث الهم

فتكونُ خلاصةُ البحثِ هو نفسَهُ الذي صدَّرْتُه به :

فإما أنه لم يهمَّ، وإما أنه همَّ بما لا يُحْسَبُ عليه بل يُحْسَبُ له .

والذي يظهرُ أن الخلافَ بين هذينِ القولينِ إنما هو خلافٌ لغويٌّ فإن استُبْعِدَ يكادُ الرأيانِ أن يكونا منطبقَيْنِ :

فالأول : ينفي الهم تبرأةً لجانبِ النبوةِ فيه عليه السلام .

والثاني : يُثْبِتُ همًّا محموداً ـ لتركِهِ ـ إثباتًا لجانبِ البشريةِ فيه عليه السلام .

فإن العفة : بين الفجورِ والفتورِ كما أنَّ الشجاعة : بين التهورِ والجبنِ وكما أنه لا يوصفُ الفاجرُ بالعفة فكذلك لا يوصف الفاتر الجامدُ ناقصُ الرجولية بالعفةِ .

فمن : أثبت « الهم » أثبته لينفي عنه الفتورَ .

ومن نفي « الهم » نفاه لينفي عنه الفجورَ .

والكل يثبتَ له العفة .

وأما القول الثالث فلا والله أعلم .

* * *

البرهَـــانُ

ولكنْ ما هو البرهانُ الذي رآهُ يوسفُ ـ عليه السلام ـ فصُرِفَ به عنه السوءُ ؟!

أقوالٌ شماطيطُ كلُّها إسرائيلياتٌ[1] لا تعدُو أن تكونَ قدحًا في مرتبةِ النبوةِ ،كما هي عادةُ بني إسرائيلَ مع أنبيائِهم[2] فإنهم لا يعتقدون العصمةَ في الأنبياءِ.

وكلُّ ما يَخُصُّنَا هو أنه ـ عليه السلام ـ رأى برهانًا صَرَفَ اللهُ به عنه السوءَ .

---

(١) لعل أكثر المواضع إيراداً للإسرائيليات ـ في كتب التفسير ـ قصة يوسف ـ عليه السلام ـ وبخاصة هذا الموضع .
قال الشيخ أبو السعود (٤ / ٢٦٧) ـ بعد أن ساق الأقوال في البرهان ـ : إنْ كلُّ ذلك إلا خرافاتٌ وأباطيلُ تمجُّها الآذانُ وتردُّها العقولُ والأذهانُ ، ويلٌ لمن لا كها ولفقها أو سمعها وصدقها .
وقال الشيخ ابن جرير (١٢ / ١١٣) ـ بعد طول كلام عن البرهان ـ : والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تعالى والإيمانُ به وتركُ ما عدا ذلك إلى عالمه . اهـ .
هذا ، وإن الجميع قد اتفقوا ـ بعدما اختلفوا في كنه البرهان وحقيقته ـ على أن البرهان قد أحدث عند يوسفَ رؤيةَ قبحِ الزنا وسوءِ عاقبته ،فرأى الأمور على حقيقتها فإن النار حجبت بالشهوات بخ (٦٤٨٧) .

(٢) ومن ذلك ـ أيضاً ـ قصة افتتان داود ـ عليه السلام ـ بنظـره إلى امـرأة الجندي (أوريا) حتى رُوى ذلك مرفوعًا ، ذكر ذلك كلَّه الشيخ الألباني في « الضعيفة » (٣١٣ ، ٥٧٦) والقصة بتمامها تحت رقم (٣١٤) وقال الشيخ بعدها : والظاهر أنه من الإسرائيليات التي نقلها أهل الكتاب الذين لا يعتقدون العصمة في الأنبياء .

وكونهُ لم يأتِ تصريحٌ في القرآن الكريم ، أو على اللسانِ الكريمِ بكُنْهِ هذا البرهان وحقيقته ، فلعلَّه أن يكونَ له مِنَ الأثرِ عظيمَهُ ومن المعنى أبلغَهُ، فالقصصُ في القرآن ليس للتسليةِ وإنما هو لوعظ الناسِ

والناس شتَّى ، واستقبالُهم يختلِفُ .

وما يَرْدَعُكَ قد لا يؤثِّر فيَّ ، وما يَدْفعُكَ قد يمنعُ غيرَك .

فناسَبَ أن يُذكر جنسُ السلاحِ لا نوعُه .

حتى إذا تَلى التالي أو سَمِع السامعُ : ﴿**وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾ أوَّلَهُ كلُّ إنسانٍ بما يَرْدَعُهُ هُوَ .

أوَّلَهُ بالوقوف بين يدي اللهِ ، أو بالقبر وضمتِه وظلمتِه ، أو بفضيحته يوم الفضيحةِ ، أو بأنه لا يحب ذلك لأمه ولا لأخته إلى غير ذلك وهو كثيرٌ جمعته كلمة ﴿**بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾[1] .

* * *

---

(١) وقريب منه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أبعون خصلة» أعلاهن مَنيحةَ العنْزِ ما من عاملٍ يعمل بخصلةٍ منها رجاءَ ثوابها وتصديقَ موعُودِها إلا أدخلَهُ الله بها الجنة**». بخ ٥١/٣٥.

قال ابن حجر – فتح (٥/٢٩٠): ومعلومٌ أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان عالما بالأربعين المذكورة، وإنما لم يذكرها لمعنى هو أنفع لنا من ذكرها وذلك خشية أن يكون التعيين لها مزهِّداً عن غيرها من أبواب البر.

الإخلاصُ خَلاصٌ

الإخلاصُ : هو تَصْفِيَةُ العملِ عن ملاحظةِ المخلوقِينَ .

وصورتُه أن تُقْبِلَ بكلِّيَّتِكَ على ربك ، فلا يَبْقَى في قلبك قصدٌ إلا لله .

ومحصِّلَتُه انشغالٌ كاملٌ بإرضاءِ ربِّ العبادِ سبحانه وتعالى .

وإنَّ في الإخلاصِ لشغلاً : لأنَّ القلبَ إذا امتلأ بالإخلاصِ ، استحلاهُ على كلِّ شيءٍ ، واستغنى بِهِ عما سواه .

وإنا لا نجدُ العشقَ ولوازِمَهُ إلا فيمن كانَ فارغًا عن الانشغالِ، حتى وإن كان انشغَالاً بصناعةٍ أو تجارةٍ .

فكيفَ بمنِ انشغلَ باللهِ والعلمِ عنهُ والحكمِ بشرعهِ ؟!! ﴿**آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ .

قال شيخُ الإسلامِ ابن تيميةَ - قدَّس اللهُ روحَه - :

وهذا - يعني العشق - إنما يُبْتَلى به أهلُ الإعراضِ عن الإخلاصِ للهِ الذين فيهم نوعٌ من الشركِ ، وإلا فأهلُ الإخلاصِ كما قال اللهُ - تعالى - في حقِّ يوسفَ عليه السلام :

﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ .

فامرأةُ العزيزِ كانت مشركةً فوقعت مع **تزوُّجها** فيما وقعت فيه من السوءِ ، ويوسفُ عليه السلام مع **عزوبتِه** ومراودتِها له واستعانتِها عليه بالنسوةِ وعقوبتِها له بالحبسِ على العفةِ : عصمه اللهُ بإخلاصه للهِ تحقيقًا

لقوله : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ والغَيُّ هو اتباعُ الهوى[1] . اهـ.

فأعظمُ ثمراتِ الإخلاصِ أن يُصرف عنك السوءُ والفحشاءُ.

فالإخلاصُ تصفيةٌ ومن صَفَّى صُفِّيَ له ومن كدَّرَ كُدِّرَ عَلَيْه.

ونكتةُ الصرفِ : أنه صرفٌ للسوءِ عنكَ لا صَرْفُكَ عن السُّوءِ .

فحصَلَ المقصودُ بدونِ تكلُّفٍ منكَ ولا عناءِ ﴿ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً ﴾ .

فلا يحصلُ لك تعلُّقٌ بالسوءِ من الأصلِ ، فهو صرفٌ كاملٌ ولله الحمد[2] .

---

(١) المخلصين : قرئ بفتح اللام وبكسرها ـ انظر : «التيسير في القراءات السبع» لأبي عمرو الداني (١٠٥) فبالفتح تكون اسمَ مفعول ويكون المعنى : الذين أخلصهم الله ـ تعالى ـ لطاعته ، قال تعالى عن ذرية إبراهيم : ﴿ نَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ... ﴾ .
وبكسرها تكون اسمَ فاعل ويكون المعنى : الذين أخلصوا دينهم لله تعالى.
وكلا الوصفين ثابت ليوسف ـ عليه السلام ـ فهو مخلِص لله مخلَص من الله .

(٢) وحال الداعي حالٌ آخر ، فهو يطلب أكملَ الحالاتِ : « **إذا سأل أحدكم فليكثر ، فإنما يسأل ربه** » « الصحيحة » (١٣٢٥) .
ولذا ففي دعاء الاستخارة : « **فاصرفه عني واصرفني عنه** » بخ (١١٦٦).
وإلا فكم من إنسان صُرف عنه السوء ولم يُصرف هو عنه ، لأن الصرف لم يكن كاملاً، فلزم أن يكون الدعاء كاملاً .
وأما الحال عند امتنان المنان : ﴿ لنصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ ﴾ فعلى خلاف ذلك وإنما هو على وفق : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ . =

فحاشا لله أن تُصفّيَ عملك ويكدِّرَ أَجرَك وهو الذي قال : ﴿ **إِنَّا لا نُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً** ﴾ .

وإِحسانُ العملِ : الإِخلاصُ فيه والمتابعةُ .

* * *

= وهذا فيه أبلغ إشارة إلى أن السوء هو الذي اقترب من يوسف ومال إليه فصرفه الله عنه أما يوسفُ فلم يَمِلْ ولم يصرف . فتأمل فإنها ﴿ **لِنَصْرِفَ عَنْهُ** ﴾ ليست : (لنصرفه عن) .

تَوَكَّلْ وَفِرّ

كانَ لابُدَ ـ والحالةُ هذه ـ من إنهاءِ المقابلةِ ـ بالمصطلحِ الحديثِ ـ بعد أن حَصَلَ عرضٌ ورفْضٌ .

وإلا فلمَ المكثُ في مكانٍ ما غلّقَتْ أبوابُه إلا للْمعصيةِ ؟!!

ولمَ الاستمرارُ مع أناسٍ النظرُ في وُجُوههم بليةٌ يدعُو بها المظلومُ على الظالمِ ؟!!

ولمَ المكثُ مع الفتنِ والقرارُ مع المجزومِ في مكانٍ واحدٍ ، بدعوى : حلُّ المسألةِ سلْميًّا ؟!! ووالله لو أنه سَالَمَ لما سَلِمَ .

ولمَ يخالطُ المحجوبينَ عن اللهِ ومخالطتُهم تُورِثُ الحَجْبَ والغِشَاوَةَ ؟!!

ومع أنه من نقصانِ الرُّجوليَّةِ والإيمانِ : **الفرارُ من العدُوِّ** .

فإنه من تمامِ الرجوليةِ والإيمانِ : **الفرار من الفتن** .

ففي لقاء العدوِّ إحدى الحسْنَيَيْنِ : النصرُ أو الشهادةُ .

ومع ذلك : « **لا تتمنَوْا لقاءَ العدوِّ** ... »[1] الحديث.

وفي لقاءِ الفتنِ الأمرُ على خِلافِ ذلك : فمغْلُوبٌ أو غالبٌ والله أعلم.

---

(١) حديث رواه البخاري ، كتاب : الجهاد والسير ، باب : كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا لم يقاتل .
ومسلم ، كتاب : الجهاد والسير ، باب : كراهة تمني لقاء العدو كلاهما عن عبد الله ابن أبي أوفى ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا .

لذا كان الفرارُ من الفتنِ بالدينِ : من الدينِ وبوَّبَ له البخاريُّ[١] .

فاتْرُكِ الشرَّ كيما يترُكُكَ .

وأَبِنِ القَدَحَ عن فِيكَ ثمَّ تنفسْ .

فإنَّ القلوبَ ضعيفةٌ والشُّبَهَ خَطَّافةٌ .

وتزوَّجَ بعضُهُم شيعيَّةً ليردَّها إلى السنةِ فشيَّعَتْهُ للتشيع .

وقد كان أعلمُ الناسِ بربِّ الناسِ يتعوَّذُ من الفتنِ بل وفي كُلِّ صلاةٍ .

وذلك لأنَّ الفتنَ شرٌّ الموتُ خيرٌ منه ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « **اثنانِ يكرهُهُمَا ابنُ آدمَ : يكرَهُ الموتَ والموتُ خيرٌ له من الفتنَةِ ويكرهُ قلَّةَ المالِ وقلةُ المالِ أقلُّ للحسابِ** »[٢] .

وأَمَرَ مَنْ سَمِعَ بالدجالِ بالبعدِ عنه فقال : « **من سَمِعَ بالدجالِ فَلْيَنْأَ عنه** ... »[٣] الحديث .

* * *

ولذا لما استَفْرَغَ يوسفُ ـ عليه السلام ـ كلَّ النصحِ وجِماعَ الوعظِ حدَّدَ هَدَفَهُ في المرحلةِ التاليةِ : أنْ يتوكَّلَ ويفرَّ .

و« **التُّؤَدَةُ في كلِّ شيءٍ خيرٌ إلا عملَ الآخرةِ** »[٤] .

---

(١) الباب الثاني عشر من كتاب الإيمان .

(٢) ذكره الشيخ الألباني في « السلسلة الصحيحة » (٨١٣) وعزاه للمسند (٥ / ٤٢٧ ، ٤٢٨) وغيره ، عن محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا .

(٣) رواه أبو داود ، كتاب : الملاحم ، باب : خروج الدجال ، عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا .

(٤) رواه أبو داود ، كتاب : الأدب ، باب : في الرفق ، عن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا وصححه الشيخ الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٧٩٤) .

فلا بُدَّ للأبوابِ أنْ تنفَتِحَ وللغمَّةِ أن تنقَشِعَ .

وقد قيل : الوقايةُ خيرٌ من العِلاجِ ، والدَّفْعُ أيسرُ من الرَّفْعِ .

فإلى الفَرَارِ المحمودِ .

وكان المَفرُّ[١] هُوَ البابَ فابتدرا الباب[٢] .

هو للهربِ وهي للطلبِ .

هو للهرب يمدُّ يَدَهُ إلى الباب ولسانُ حاله يقولُ :

فليتَك تَحلُو والحياةُ مريرةٌ ... وليتَكَ ترضى والأنامُ غِضَابُ

وليتَ الذي بيني وبينك عَامِرٌ ... وبيني وبين العالمينَ خرابُ

وهي للطلبِ تمدُّ يدها إلى يوسفَ ولسانُ حالها يقولُ :

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ... العشقُ أعظمُ ممَّا بالمجانِينِ

أو تقول :

رأيتُ النفسَ تكرَهُ مالديها ... وتطلُبُ كلَّ ممتنعٍ عليها

فما أدركتْ منه إلاّدُبُرَ قميصه فجبَذَتْهُ منه، تريدُه لا تريدُ القميصَ .

فاكتملتْ خيبةُ سعْيِها بقدِّ القميصِ .

ورسمتْ بيدها نجاتَه .

وكتبتْ بيدِها إقراراً بالعفةِ لهُ .

---

(١) المَفرُّ : مَوْضعُ الفَرار . من « القاموس » .

(٢) قول الله - عز وجل - : ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ نحو قوله تعالى : ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي : ابتدروه ، وإلا فالفعل استبقا يتعدى بحرف الجر : « إلي » فَحَذْفُه ضمَّن الفعلَ معنى زائداً وهو أنهما لم يكونا يستبقان والسلام وإنما من أجل إدراك الباب قبل الآخر.

للمزيد : الزمخشري : (٢/ ٤٤١) و« الوجوه النظائر » : (١/ ٤٥٣) و« أساس البلاغة » وللتضمين راجع : « الاستغناء في الاستثناء » (ص١١٧) و« بدائع الفوائد » (٢/ ٢١) ومجلة مجمع اللغة العربية (٥٦/ ٦٧، ١٣٣) .

الفرجُ بعدَ الشّدّة

انتظارُ الفرجِ بعدَ الشـدَّةِ نوعٌ من الاسْتِشْفاءِ قلَّ من يتعاطاه .

هو والصبرُ والدعاءُ أعرضَ الناسُ عن ثلاثتِهِم مع مسيسِ حاجتِهم إليهم .

* فغالبُ الناسِ إذا ضاقَتْ الأحوالُ ضاقُوا .

وهؤلاءِ مِنْ صنفٍ يخافُ اللّهَ ، لكنْ كما يخافُ من الأسدِ يتعقَّبُهُ !!

فهو يريدُ أنْ ينجوَ من اللّهَ كما يريدُ أنْ ينجوَ مِنْ عَدُوِّه .

فكلَّما رأى عسراً قال : هِيَ ، هِيَ !!

وكلما ضاقتْ قالَ : أدْرِكَني !! أدْرِكَني !!

وحاشا لله أن يكونَ هذا هو الظنَّ به ، فهذا خوفٌ مَذْمُومٌ علامَتُهُ سوءُ الظنِّ باللهِ ، وأما الأخرُ المحمـودُ ـ وهو الخوفُ من عِقابِهِ ـ فَعَلامَتُه الإحْجَامُ عن المناهِي والإقبالُ على الأوامرِ .

وهلْ هناك أرحمُ من أن يَحْكُمَ فيك مَنْ هو أرحمُ ـ سبحانه ـ من الوالدةِ على ولَدِها ، وأعلمُ بك من نفسِك ، ثم هو لا يَضِلُّ ولا ينسى ، ولا يظلمُ الناسَ شيئًا ؟!!

كأنك تقول : لا !!

إذن فأحسِنِ الظنَّ[1] .

---

(١) وهو على ضَرْبَيْنِ : =

والله سبحانه يقولُ :

« **أنا عِنْدَ ظنِّ عَبْدِي بي ، إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرٌ** »(١) .

* ومن الناسِ - والحقُّ معهم - مَنْ إذَا ضاقتِ انتظرَ الفَرَجَ(٢) وسَمِعْنَاهُمْ يرددون :

ضَاقَتْ فلما اسْتحْكَمَتْ حلقاتُها فُرِجَتْ وكُنْتُ أظنُّهــا لا تُفْرَجُ

= • إحسانُ الظنِّ فيما لك فيه مشاركةٌ وهوَ : أن تأخُذَ بأسبابِ النجاةِ وتحسنَ الظنَّ أن للهَ تعالى سينجيكَ بها .

• وإحسانُ الظنِّ فيما هو واقعٌ في الواقعِ وهو : أن تنتظرَ منهُ أحسنَ النتائجِ وأفضلَ الأثر .

فليسَ من إحسانِ الظنِّ أن لا تعملَ أو تعملَ دونَ ما تستطيعُ ثمَّ تنامَ مِمَّا بَقِيَ .

وليسَ - كذلكَ - من إحسانِ الظنِّ أن يقعَ الأمرُ ثم لا تأوِّلَهُ إلا إلى الشر بل ابحثْ عن وجه المَسَرَّةِ فيه وستجدُ إن شاءَ اللهُ .

وهاكَ هذه القصةَ ذكَرها ابن حَجَّةَ الحَمَوي - المتوفي (٨٣٧هـ) في « ثمرات الأوراق » قال : قيل : إن « المنصورَ بن أبي عامرٍ الأندلسيَّ » كانَ إذا قصدَ غزاةً عقدَ لواءَهُ بجامعِ قرطبةَ ، فاتَّفقَ أنه في بعضِ حركاته للغزاة توجَّهَ إلى الجامع ، فرفعَ حاملُ اللواءِ اللواءَ فصادفَ ثريًّا من قناديلِ الجامعِ ، فانكَسَرتْ على اللواءِ وتبدَّدَ عليه الزيتُ فتطيَّرَ الحاضرون من ذلكَ وتغيَّرَ وجهُ المنصورِ، فقالَ رجلٌ : أبشِرْ يا أميرَ المؤمنينَ بغزاةٍ هينةٍ وغنيمةٍ سارةٍ فقدْ بَلَغَتْ أعلامُكَ الثريَّا وسقاها اللهُ من شجَرَةٍ مباركةٍ .

فاسْتحسَنَ المنصورُ ذلكَ واستبْشَرَ بِهِ وكانتِ الغزاةُ من أبركِ الغزواتِ اهـ من مختصرٍ له .

فما في النفسِ يطفحُ على العينِ

(١) ذكره الشيخ الألباني في « السلسلة الصحيحة » (١٦٦٣) وعزاه لابن حبان (٧١٦) وغيره، عن واثلة بن الأسقع - رضي الله عنه - مرفوعًا .

(٢) وفي قصة تخليف كعبٍ وصاحبيه - رضي الله عنهم - بخ (٤٤١٨) وم (٢٧٦٩) تجدُ هذا المعنَى من كلامِ « كعبٍ » رائقًا صافيًا ، وذلكَ أنه كانَ على الحال التي وصفَ اللهُ تعالى ضاقتْ عليه الأرضُ بما رحُبَتْ وضاقتْ عليهِ نفسُهُ والأحوالُ تزدادُ ضيقًا فوقَ ضيقٍ .

وبينما هو كذلكَ إذْ يرسِلُ إليه مَلِك غسَّانَ رسالةً يطلبُ منه فيها أنْ يلحَقَ بِهِ ، يقولُ كعبٌ عنها : =

فدوام الحالِ من المحالِ ، وعلامةُ الانفراجِ زيادةُ الضيقِ .

وماذا بعد التمامِ إلا النقصان :

إذا تمَّ أمرٌ بـدَا نقصُـه ترقَّـبْ زوالاً إذا قيل تمّ

فالصِنْفُ الأولُ إذا سَمِع : **﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَاب ﴾** .

ضاقَتْ نَفْسُهُ وزادَ نَفَسُهُ .

والصنف الثاني يقولُ : هو ضِيقُ الفَرَجِ إن شاء الله .

وهذا هو الذي وقَعَ في الواقِعِ .

وقَدَّرَ اللهُ ـ جل وعز ـ أن يُصادِفا على غير ميعادٍ :

عزيزَ مصرَ ومعهُ رجلٌ من أهلِ زوجَتِه .

وَفكِّر معي لو أنَّ يوسفَ لَمْ يَجِدْ أحداً لَدَى البابِ ماذا كان سيحدثُ؟!!

فقلتُ حينَ قرأتُها : (وهذه أيضًا من البلاء فتَيَمَّمْتُ بها التنورَ فَسَجَرتُهُ بها) فانظرْ إلى هذا الفقه « الصحابيِّ » تعلمْ أنَّ الصحابةَ جمعُوا فيما بينهم كلَّ العلومِ ، وأن القواعدَ التي قعّدَتْ مِنْ بعدِهم كانتْ موجودةً بينهم على وجه الإجمالِ ، فهم أوَّلُ حلقات العلمِ وأكبرُ قنوات العلمِ وأشرفُ حامِلي العلمِ رَضِيَ اللهُ عنهم أجمعين .

كلماتٌ جميلةٌ أَجْملَتْ كلَّ الأدب :

(وهذا أيضًا من البلاء فتَيَمَّمْتُ بها التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بهَا)

اعلمْ أنَّ الذي يقعُ بكَ إنما هو ابتلاءٌ وفتنةٌ فلا تلتفت إلى الأسباب وسمّه باسمه «ابتلاءً» ثم اطْرحْهُ خلفَ ظهرِك واحرقْهُ في تنّور **﴿ إنَّ مع العسْرِ يسرًا ﴾** [الشرح :٦]. وخُذْ بأسبابِ النَّجاةِ ولكِنْ لا تجْعَلْها تشْغَلُكَ عن التفكُّرِ في حِكْمَةِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ في قدَرِه .

وأنْتَ مع كُلِّ هذا تنتظرُ الفرجَ بعدَ الشدة فإنَّ مع العسْرِ يسرًا إن مَعَ العسْرِ يسرًا ولنْ يغلِبَ عسرٌ يُسْرينِ .

أو أنه كان سيدُها[١] بمفردِهِ بدون الشاهد ، أوْ كانَ ولكنْ ليس مِن أهلِها ؟!!

ولكنَّ اللهَ أرادَ أتمَّ صُوَرِ البلاءِ، وقَدَّرَ منها أتَمَّ صُوَرِ النَّجاءِ!!

وسبحانَ من يُقدِّر بالسببِ وبعكسِ السببِ وبلا سببٍ ولهذا موضع آخرُ إن شاء الله تعالى .

* * *

(١) قال أبو السعود (٤/ ٢٦٧) : وإذْ لم يكن ملكُه ليوسفَ ـ عليه السلام ـ صحيحًا لم يقل سيدهما . اهـ .

وفي «الوجوه والنظائر» (١/ ٤٤٠) : تفسير السيد على وجهين : الزوج ، الحليم ... ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ﴾ يعني زوجها اهـ.

كَيْدُ النساءِ غَلَبَ كَيْدَ الرِّجال

البدَايَاتُ لها أحكامٌ[1] .

ويكفِي أنَّهم قالُوا : الهجومُ خيرُ وسيلةٍ للدِّفَاعِ !!

وقالوا : ابدَأْهُمْ بالصُّرَاخِ يَفِرُّوا[2] !!

فمِنْ كَيْدِ امرأةِ العزيزِ أنِ اسْتَحْوَزَتْ على البدايةِ لَمَّا ظَنَّتْ أنها مَعَها فهي بنتُ الأيامِ المجرِّبَةُ .

وخرجَتْ في هذهِ الحالةِ العجيبةِ ! والهيئةِ المريبةِ ! التي يُدهَشُ فيها اللبيبُ ويُزهلُ فيها الفَطِنُ ومع ذلك لَمْلَمَتْ نفْسَهَا بقدرةٍ عجيبةٍ لا يملكُها إلا شياطينُ الإنسِ والجنِّ وقالت : ﴿ **مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا** ﴾ .

فبرَّأتْ ساحَتَها ورمَتْ يوسفَ عليه السلام بما فَعَلَتْ ، كما قال

---

(١) ويقولون عمن يعرفون أنه يَصْدُرُ عن عقل وإدراك : « عنده مبدأ » ، ثم لا يصفون هذا المبدأ !! ولكنها البداية وحبُّ الانتساب إليها .
وما نال « أبو خزاعة » ما ناله إلا لأنه أولُ من سيَّبَ السوائب .
ولما كان أمر البداية كما ترى ، تنافس الناسُ عليها إن كانت لهم أو على الفرار منها إن كانت عليهم : ومن الأخير إيثارُ موسى ـ عليه السلام ـ أن يكون ثاني من ألقى ، لما يعلم أن هذه البداية خَيْرُها في غيرِها .
فالبَداية لها أثر فيما بعدها .
فمن أحَسَنها فمَظنَّةُ الحسن فيما بعدها أغلبُ .
وسبحان من هو أولٌ بلا ابتداء آخرٌ بلا انتهاء .

(٢) انظر : « جمهرة الأمثال » (٢٢٢) .

القائل: رمتْنِي بدائِها وانْسَلَّتْ .

ثم قالت : ﴿إلاَّ أن يُسْجَنَ أَوْ عذابٌ أَلِيمٌ﴾ .

وهذا من تسلُّطِهَا على زوجِهَا كما هو ظاهرٌ ، فهي تقرِّرُ وتَطْلُبُ منه أن يُقرَّ(١) .

ثم هي قَصَّرَتْ عِقَالَ عَقْلِ زوجها فلا يذهبُ إلى قَتْلٍ ولا تمثيلٍ ولا تخصِيَةٍ ولا نفيٍ ولا بيعٍ ولا ما شابه ، ففي كلِّ هذا لن تجده ثانيةً وهي ما زالت تريدُهُ .

وأمَّا في السَّجنِ أو التعذيبِ فالأمر قريبٌ .

خاصةً وهي قد قدَّمَتْ ذِكْرَ السجنَ على التعذيبِ وخيَّرت ولم تجمع، وفي قولها : (يُسْجَن) دون: (يكون من المسجونين) ـ كما قالها فرعونُ لموسى ـ عليه السلام ـ ما يُشعِرُ بقلة مدةِ السجنِ إن حَصَلَ .

وتَسْمَعُها وهي تقولُ : ﴿إلاَّ أن يُسْجَنَ أَوْ عذابٌ أَلِيمٌ﴾ فكأنَّها تقول : ﴿ولَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ولَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ فكأنها تلمِّحُ له أنها ترفعُ عنهُ لَوْلانَ للهوانِ .

وفي إبهامِ المريدِ إشعارٌ بأنَّ الجزاءَ المذكورَ هو على كلٍّ من يريدُ ذلكَ وكونُ المريدِ هو يوسفَ لا يغيِّر الأمرَ .

---

(١) حتى قيل إن (ما) في كلامها: نافيةٌ بمعنى (ليس) ، فيكون معنى الكلام : ليس جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذابٌ أليم .
فهي قد أخذت القرار وتريد منه الإقرار .
بل حتى وإن كانت (ما) استفهامية فهي للتقرير أيضًا .
ثم : كم من رجل أوردته زوجه المهالكَ ، بتلك المسالكِ .

وفي ذِكْرِها لنفْسِها منسوبةً إلى الزوج إعظامٌ للخطْبِ وإغراءٌ للزَّوْجِ على تنفيذِ ما تُريدُ .

ومع ذلك :

فإن الحقَّ ليس به خَفاءُ ولا تخفى الخيانةُ والخَلابُ

* * *

دَفْعُ التُّهَمِ محمودٌ

ادَّعَتِ المرأةُ في يوسفَ « مَا ليسَ فيهِ » ، فقالَ فيها « ما هُوَ فيها » .

وقارنْ بينَ كلامِها وكلامِهِ ، تجدِ الفارقَ بين الكلامينِ كالفارقِ بينَ المتكلمَينِ !!

وانظرْ إلى تلميحِها وتصريحِهِ وثرثرتِها وفصاحتِهِ ، تعرفْ مَنْ منهما على الحقِّ فقد قيلَ : إنَّ الحقَّ أبْلَجُ والباطلَ لَجْلَجُ .

فأينَ كلامُ الكيدِ من كلامِ النُّبوَّةِ ؟!!

وأينَ رَمْيُ التهمِ مِنْ دَفْعِها ؟!!

وأينَ الكذبُ مِنَ الصِّدقِ ؟!!

وإنَّ لصاحِبِ الحقِّ مقالاً ، فَزَهَقَ باطلَها بحقِّهِ وقالَ : هي راودتني عن نفسي .

أخلاقُ نبوةٍ ، وآدابٌ جمَّةٌ ، ورفعةٌ وعُلُوُّ هِمَّةٍ ، وحسنُ ظنٍّ بربِّهِ أنْ يُظهِرَ المئِنَّةَ مِنَ المظِنَّةِ !!

وكما تركها هناكَ في الحضيضِ وقالَ : معاذ اللهِ ، تركَها هنا تتوتَّرُ وتزبدُ وتَرْعَدُ وتَتَوَعَّدُ وقال : هي راودتني عن نفسي، قالَها حسنَ ظنٍّ باللهِ أنْ تكونَ سببًا في الفرجِ .

وإلا فأيُّ وجْهٍ لكلامِهِ ؟ وهو العبدُ وسيدتُهُ تَكَذِّبُهُ ثمَّ القرائنُ ليست معهُ ؟!!

قالها فإنْ جَاءَتْ بالفَرَجِ فهوَ المطلوبُ ، وإنْ لا : قالها ليقالَ: قدْ قالَ : « لا لم أفعلْ » .

فأينَ قولُهُمْ : « سَكَتَ وَلَمْ ينطقْ ببِنْتِ شَفَةِ »، مِنْ قولِهِمْ: « قَالَ لم أفعلْ »؟!

قَالَها يقدِّمُ للنجاةِ سبباً ، فكلُّ قَدَرٍ ولهُ سَبَبُهُ الذي يُطْلَبُ به، شاء **الله** ذلك .

فدَرَأَ عن نَفْسِهِ التهمةَ والسلام ، وَدَفْعُ التُّهَمِ محمودٌ كما أنَّ اتِّقَاءَ الوقوفِ في مواطِنِهَا محمودٌ[1] .

وهـذا فيـه من أسـرارِ الأسبابِ ، والتـوكُّلِ على اللهِ ، وحُسْنِ الظنِّ به والثِّقةِ ، والاعترافِ بكمالِ عَدْلِهِ ، ما يحتاجُهُ كلُّ قلبٍ لِكَيْ يكونَ سليماً .

* * *

وكما أنَّهُ فَرَّ إلى البابِ لا يفعلُ إلا الصَّوابَ.

فهو يَرُدُّ الكيدَ ويدفعُ التهَمَ بالمستطاعِ لأنهُ خيرٌ والخيرُ لا يأتي بشرٍّ[2] .

---

(١) ففي الحديث : « ... **فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه** » .
رواه البخاري ، كتاب : الإيمان ، باب : فضل من استبرأ لدينه .
ومسلم ، كتاب : المساقاة ، باب : أخذ الحلال وترك الشبهات ، كلاهما عن **النعمان** ابن بشير ـ رضي الله عنه ـ مرفوعا .

(٢) فاعقلها وتوكل : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ .
وافعل الصوابَ لأنه صوابٌ لا لحسْنِ عَقِبِه .

وكلامُهُ هو الذي نجَّاهُ بفضلِ اللهِ !!

فبكلامِهِ هذا استحقَّ الأمرُ أنْ يُقْضَى فيهِ(١) !!

فلعلَّ عقلَ الإنسانِ ـ وبخاصة في هذه الأحوال ـ يرى حسنَ العقابةِ سوءَ مآل والعكس بالعكس .

وغاية ما يمكن أن يصل إليه العاقل منا أن يعلم ما الذي يريده ؟!!

أما الذي يفيده فلا يعلمه إلا الله .

قال تعالى : ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم﴾ الآية [النور : ١١] .

وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «**أبشر عمار تقتلك الفئة الباغية**» « صحيح الترمذي » (٢٩٨٩) .

أبشر تقتلك !!

فمن منا يدري بعد ذلك أين الخير ؟!!

(١) كثيراً ما يحدثُ في بُيوتِنا هذا الحوارُ أو ما في معناهُ :

هو : فعلتِ ؟! هي : بل لم أفعلْ !!

هو : بل فعلتِ !! هي : واللهِ ما فعلتُ !!

هو : بل فعلتِ !! هي : لم أفعلْ صدِّقْني قد أقسمت لَكَ .

فخسرَ « هو » فيها أشياءً لأنه لا يملكُ إلا : « بل فعلتِ » « بل فعلتِ »!! حيثُ لم يحترمِ اليمينَ وجرَّأها عليه وعلى تَكْذِيبِهِ وانتَقَلَ بها إلى خلافِ أوسعَ ثمَّ : لا نتيجة . فليتَنَا نفقَهُ من ذلك :

● إمَّا أنْ تدَّعِيَ ومعَكَ البَيِّنةُ ، والبينةُ تكونُ « معكَ » ليستْ « لَكَ » فبينةٌ لا تستطيعُ أن تُبْدِيها تهمةٌ جديدة تحتاج إلى بَيِّنة .

● وإمَّا أنْ تدَّعِيَ ـ لمصلحة تَرْجُوها ـ فإذا رُدَّتْ دعوتُكَ لم تُصرَّ عليها ، فمَثَلُ مَنِ ادَّعَى بدون بيِّنةٍ ، كمنْ نَازَلَ بغيرِ سلاحٍ .

● وإمَّا أن تَسْكُتَ بالكُلِّية ، فإنَّ مَنْ أكثرَ التهمَ بدون بينةٍ : هَانَ كلامُهُ ، وسقطَتْ هيبَتُهُ ، وتجرَّأَ عليهِ مَنْ كانَ لا يستطيعُ أنْ يرفعَ إليهِ عينَيْهِ .

ثمَّ : لا نتيجة .

فمَا قامَ القضاءُ إلا على مدعٍ ومدعًا عليه وشَاهدٍ وقاضٍ .

وهذهِ هِيَ صورةُ القضِيَّةِ :

هي تدَّعِي فيهِ نفسَ مَا ينْسِبُهُ إليها ، وتدَّعِي لِنَفْسِهَا نَفْسَ ما يُؤكِّدُهُ لِنَفْسِهِ :

هِيَ تَنْسِبُ المراودةَ له والاستعصامَ والعفةَ لها .

وهو يَنْسِبُ المراودةَ لها والاستعصامَ والعفةَ له .

فيتولَّدُ عِندَكَ : **دَعْوتان وإنكَارَان !!**

كُلٌّ منهما يَدَّعِي على الآخرِ ، ويَرُدُّ دعوَى الآخرِ عليه .

وكما تَرَى هي حالةٌ قليلةُ الوُقوعِ ، فشاءَ اللّٰهُ ـ عز وجل ـ أنْ تكونَ الأمَارةُ على نفسِ شاكلةِ القضيةِ : القميصُ والقدُّ :

فإنْ كانَ القَدُّ من القُبُلِ : تُرَدُّ دعوَى يوسفَ وتُقْبَلْ دعوَاها التي أنكرَها هو .

وإنْ كانَ القدُّ مِنَ الدُّبُرِ : تردُّ دَعْواها وتُقْبَلْ دعواه التي أنكرَتْها هي .

فالقدُّ هو الأمارةُ على كلِّ الأحوالِ !!

* * *

الشَّهادةُ لله

لما تعارَضَ القولانِ احتاجَ الأمرُ إلى شاهدٍ ليُعلَمَ الصَّادقُ من الكاذبِ .

وكانَ موجوداً وكانَ حكيماً مِنْ أهْلِها !! غيَّرَهُ الله لغيْرِهِ .

وشهدَ بالحقِّ !! وهذا خير الشهداء لما في الحديث :

« **ألا أخبركم بخَيْرِ الشهداءِ : الذي يَأْتي بشهادتهِ قبل أن يُسألَها** »[(١)]

وعندمَا يكونُ الشاهِدُ على الإنسانِ مَنْ يُتَوَقَّعُ منهُ الشَّهادةُ له تكونُ أبلغَ الشَّهاداتِ وأبعدَها عن التهمِ والرِّيَبِ ولذا لا يقبل الجهول العجول ـ يوم القيامة ـ أن يكون شاهدُه إلا منه فلما يؤذن لها وتشهد بالحق يقول: بعداً لَكُنَّ وسحقًا، فعنْكُنَّ كنت أناضل[(٢)].

وقد قيل : والحقُّ ما شَهِدَتْ بهِ الأعداءُ .

وأعودُ فأسألُكَ لَوْ لَمْ يكنْ هناكَ شاهدٌ أو كانَ مِن غيرِ أهْلِها : ماذا كان سيحدث ؟!!

ولكنَّ اللهَ أرادَ كمالَ النَّجاءِ بأتمِّ البلاءِ .

وكانتْ شَهادَتُه حُكْمًا في لفظِ شهادةٍ .

---

(١) رواه مسلم ، كتاب : الأقضية ، باب : بيان خير الشهداء ، عن زيد بن خالد ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا .

(٢) رواه مسلم ، كتاب : الزهد ، حديث (١٧) عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا .

واتخذَ قَدَّ القميصِ قرينةً ، فإنْ كانتْ دافعتهُ عَنْ نفسها فسيكونُ القَدُّ مِن تلابيبهِ مِنْ قُبُلٍ .

وإن كانَ فَرَّ منها وطلبَتْه كانَ القدُّ(١) مِنَ الخلفِ من دُبُرٍ ، و« إن يبغِ عليكَ قومُكَ لا يبغِ القمرُ » (٢) .

* * *

وهذا هو القميصُ الثانِي في قصةِ يوسفَ عليه السلام .

أما الأول : فهو الذي جاءَ عليه إخوتُهُ بدمٍ كذبٍ ، قرينةً على افتراسِ الذئبِ لهُ ، ولكنَّهُ لم يتمزقْ فدلَّ يعقوبَ ـ عليه السلام ـ على أمرٍ فقالَ : « بل سولت لكم أنفسكم أمرًا فصبر جميل » وتمزَّقَ الثاني ، فدَلَّ على عِفَّتِهِ وصِدْقِهِ إِذْ قَالَ : « هي راودتني عن نفسي » .

وثالثُهُمْ : الذي حُمِلَ لأبي يوسفَ ـ عليهما السلامُ ـ لِيَعْلَمَ أنَّهُ **حيٌّ** وأنَّه ثَمَّ .

وسبحانَ مَنْ أنْقَذَ يوسفَ عليه السلام « بقدٍّ » في قميصِهِ .

وأهلَكَ سبأ « بفأرةٍ » تأكلُ من السَّدِّ .

وأيَّدَ دينَهُ « بالرَّجُلِ الفاجِرِ » وجَعَلَ لكلِّ شيءٍ سَبَبًا .

* * *

(١) القدُّ خاص بالشق طولاً ، وأما عرضا فهو القط ـ انظر : « القاموس » ـ وعلى هذا **فالقدُّ** القميصِ يدل على شدة الهربِ، وشدة الطلب ، ولو تخلف أحدُهما لتخلفت **هذه** النتيجة .

(٢) انظر : « جمهرة الأمثال » (١٩) .

شَاهِدُ يُوسُفَ

كانَ الشاهدُ رجلاً حكيمًا ذَا لحيةٍ.

وأما ما قيلَ من أنه كانَ طفلاً في المهدِ أنطقَهُ اللهُ ليوسفَ : فليسَ بصحيحٍ[١] .

وذلك لأن مجردَ كلامِ طفلِ المهدِ معجزةٌ لا يُحتاجُ معها إلى إبداءِ دليلٍ ماديٍّ وهو قدُّ القميصِ .

وإنما يكفِي أن يقولَ : « هو صادقٌ » .

فقد اكتفَى بنو إسرائيلَ بكلامِ عيسى ـ عليه السلام ـ ليعلموا براءةَ مريمَ ـ عليها السلام ـ .

مع أن عيسى ـ عليه السلام ـ لم يبرِّأها صراحة ، فضلاً على أن يقيمَ الدليل على ذلك .

وكذلك قال ابنُ الراعي : « أبي راعي الضأن »[٢] .

ثم ما الحاجة إلى وصفِه بأنه من أهلِها إن كانَ طفلاً أنطَقَهُ الله؟!!

---

(١) وأما الحديث : « **تكلم في المهد أربعة ... وشاهد يوسف عليه السلام** » الحديث .
فقد ضعفه الشيخ الألباني ـ حفظه الله ـ « الضعيفة » (٨٨) و« ضعيف الجامع » (٤٧٥٩) وقال « الضعيفة » (٢/٢٧٣) : وقد روى ابن جرير بإسناد رجاله ثقات عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن الشاهد كان رجلاً ذا لحية وهذا هو الأرجح والله أعلم . اهـ .

(٢) قصة جريج رواها البخاري ، كتاب المظالم ، باب : إذا هدم حائطًا .
ومسلم ، كتاب : البر والصلة ، باب : تقديم بر الوالدين على التطوع .
كلاهما عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ مرفوعًا .

وأما كونه حكيمًا فممَّا يدلُّ عليه :

١ ـ أنه تنبَّه إلى أمارَةِ قدِّ القميصِ إمَّا بالمشاهَدَةِ ، وإمَّا بما هو الغالب الواقعُ في مثلِ هذه الحال .

٢ ـ ساقَ شهادَتَه مساقًا جميلاً ، حيثُ صوَّر الشهادَةَ بصورةِ الشرطيةِ التي تفيدُ التردُّدَ بين أن يكون لها أو عليها .

٣ ـ ساقَ الشرطيَّةَ التي تفيدُ صدقَها أولاً ، ثم ساقَ التي تفيدُ صدقَ يوسف ـ عليه السلام ـ .

وهذا أبعدُ عن أن يُظنَ به قصدُ إنجاء يوسفَ عليه السلام ويشْبه ذلك قولَ مؤمنِ آلِ فرعونَ : ﴿ **وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ** ﴾ .

ويشبهُ : ﴿ **فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ** ﴾ .

٤ ـ ساقَ شهادَتَهُ مَساقَ القاعدةِ التي لا تَتخلَّفُ ، وكأنها ليست مَحِلَّ نزاعٍ في ذاتها .

ومن ذلك أيضًا جملتا : ﴿ **هُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ** ﴾ و ﴿ **وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ فهما مؤكدتان .

لأن من قوله : ﴿ **فَصَدَقَتْ** ﴾ يُعْلَمُ كذبُه ، ومن قوله : ﴿ **فَكَذَبَتْ** ﴾ يعلم صدقُه .

٥ ـ أظهر القميصَ في الشرطية الثانيةِ وكان حقُّهُ الأضمارُ ، ليدلَّ على أن الشرطيةَ الثانيةَ مستقلةٌ بمفردها ، وإن تَنازَعْنَا في الأولى ، على قول القائل : الموجبُ لقدِّ القميصِ غالبًا هو الجذْبُ وليسَ الدَّفعُ .

٦ ـ لم يتجرَّأْ على النطقِ بالحكمِ بل تَركَهُ لزوجها الذي قامَ مقامَ القاضِي في هذا النزاعِ .

عَصْرُ الحَرِيم

وكما أجْرَى اللهُ « البَيْنَةَ » على لِسانِ « شاهدٍ من أهلها » : أجرى ـ سبحانه ـ « الحُكْمَ » على لسان « زوجها » : ولما رأى قَميصَه قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قال : ﴿ **إنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ** ﴾ .

وانظُرْ إلى هذا الأسدِ الغَضَنْفَرِ الشَّهْمِ الحُرِّ ، وقَدْ حَكَمَ بنفْسهِ على زوجه بأنَّها كاذبةٌ في كلِّ ما ادَّعَتْه وأنَّ يوسفَ صادقٌ في قولِهِ : ﴿ **هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي** ﴾ !!!

فإذا به يُغَلِّفُ هذا الحُكْمَ بعباراتِ الاعْتِذَار[1] ويأتي به عَلَى ألْطَفِ وَجْهٍ : ﴿ **إنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ** ﴾ !!

فكأنَّه يقولُ لها : لا عَلَيكِ فإنما هو شيءٌ كَتَبَهُ اللهُ على بَنَاتِ حواءَ !!

وكما قيلَ : المصائِبُ إذا خَصَّتْ هَالَتْ وإذا عَمَّتْ هَانَتْ .

فلا عليك :

فلا تَحْسَبا هِنْداً لها الغدْرُ وَحْدَهـــا

سَجِيَّةُ نفس كلِّ غَانِيَةٍ هِنْـــدُ

---

(١) خَلَطَ الناسُ الأسبابَ بالأعذارِ ، حتى ترى منهم مَنْ يَذْكُرُ السببَ على أنه عذرٌ يَرْفَعُ عنه العقابَ ، فإذا لم يُقْبَلْ ، عَدَّ ذلك ظلمًا تُرْفَعُ اليَدُ من أجلهِ إلى السماء!!

ولَيْس كلُّ سبب عذرٌ .

فالسببُ هو ما تَذْكُرُهُ تُبَرِّرُ به فِعْلاً ، أو تَرْكًا ، فإذا أُعتُدَّ به عند مَنْ له الحَقُّ في العِتَابِ أو العقَاب : كان عذراً .

واستِكْمَالُ هذا في موضعٍ آخر إن شاء الله .

وهذا كلامُ مَنْ لم يشمَّ رائحةَ الغَيْرةِ !!

فأين ما يَتَنَاقَلُهُ النَّاسُ من غَيْرةِ المُلُوكِ على حَرِيمِهِمْ(١) !!

وهُمُ الذينَ يَسْتَقِلُّونَ في العِقَابِ ضَرْبَ الرِّقَابِ ؟!!

ويَسْتَكْثِرُونَ في الثَّوابِ رَدَّ الجَوابِ ؟!!

ما رأيْنا دمًا ولا سِكِّينًا ، ولا مَقْتُولاً ولا طَعِينًا !!

ولكنه ذلُّ العشقِ فهو يعشقها وهي تعشق يوسف ، وكلٌّ يغني على ليلاه .

* * *

وبعد أن نسب خطيَّتَها إلى سُنَّةٍ عامةٍ في النساء تمادى في ذلك فأخذ يَصِفُ كيدَ النساءِ وقال : « إن كيدكن عظيم » .

وهي كلمةُ حقٍّ فإنهنَّ لهنَّ من لطيف الحيلة ودقيق المكر وطول الأمل فيه ما لا يكون للرجال ولا قِبَلَ للرجالِ به ، لأنه أعلقُ بالقلبِ وأشدُّ تأثيراً في النفسِ وذلك لعِظَمِ فتنتهنَّ كما قال صلوات الله وسلامه عليه : « **ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النساءِ** » .

---

(١) ثم تقولُ سَاذَجَةٌ ، مُغَفَّلَةٌ ، مُغَيَّبَةٌ عن دينها وما يُصْلِحُهَا :
تُريدُون أن تَعُودُوا بنا إلى « عَصرِ الحريمِ » ؟!!
أقولُ : وأينَ هو ؟!! ليتَه يَعُودُ !!
ويَعُودُ مَعَهُ نِسَاءٌ كُنَّ يُصَنَّ كالجَوَاهِرِ !!
ويَعُودُ معهُ رِجالٌ كانوا يَغَارُونَ كالليُوث !!
واذْهَبْ إلى بُيُوتِهِمْ ـ التي أصبحتْ مَزَارَاتٍ الآنَ ـ تَرَ كُلَّ غريبٍ وعَجِيبٍ ، وطَرِيفٍ ونَادِرٍ .
فإذا سَأَلْتَ عن شيءٍ من ذلكَ : لماذا هذا هكذا ؟!!
وجدتَّ الإجابةَ المُشْتَرِكَةَ هي : لِلْمَصُونَةِ المكْنُونَةِ صاحبةِ الدارِ !! واذْهَبْ تَرَ بنفسِكَ ، فلَيْسَ الخبرُ كالمُعَايَنَةِ وأضرب لك بيت آمنة بنت سالم مثالا .

قال الأديب الحسن الشنقيطي :

ما استعظمَ الإلهُ كيدهُـــنَّهْ[1]　　إلا لأنهنَّ هُـــنَّ هُنَّـــهْ

فاللهم إنا نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

* * *

---

(١) الكيْدُ والحيلَةُ : هو مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إلى مَقْصُودٍ خَفِيٍّ .
ولذا فالكيدُ مِنْ أسماءِ الحَرْبِ لأنَّ الحربَ خدعةٌ .
ولليهودِ ـ من بينِ الأممِ ـ النصيبُ الأوفى من الكيدِ والتحَايُل والمكْرِ : فهُمْ أصحابُ السَّبْتِ والشَّبَكِ ، وأصحابُ الشَّحْمِ والوَدَكِ.
ومع ذلك فالحيلةُ تجْري عليها الأحكامُ الشرعيةُ الخَمْسَةُ .
قال القرطبي: قال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول: ﴿ **إن كيد الشيطان كان ضعيفا** ﴾ وقال: ﴿ **إن كيدكن عظيم** ﴾ اهـ.
ومقاتل يقول الذهبي فيه (سير ٧/ ٢٠١): أجمعوا على تركه اهـ. ويحيى بن أبي كثير يقول ابن حجر فيه (تقريب ٧٦٣٢) ثقة ثبت لكنه يدلس ويرسل اهـ. ثم إني لم أجده حديثا فيما بين يدي.
ومن تدبر الموضعين من الكتاب الكريم علم أن ضعف كيد الشيطان إنما هو في مقابلة كيد الله تعالى وأن عظم كيدهن إنما هو في مقابلة كيد الرجال.
فالمرأة لا تعدو -في أفسد أحوالها- أن تكون جنداً من جند الملعون نعوذ بالله منه.

الـــرَّأيُ العَـــامُّ

كانَّ الرَّجُلَ ما استطاعَ أن يُطيلَ لزوجِهِ الملامَ، خوفَ الخِصامِ.

فأخَذَ هُدنَةً نعَرَ فيها نَعْرَةَ الدَّيُّوثِ وقال للمُعْرِضِ : «أعْرِضْ»!!

﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي انْساهُ واكْتُمهُ ولا تُخْبِر بِه ، فَلَيْسَ المهمُّ أنه حَصَلَ ، المهمُ أنه لا يَصِلُ !!

وهذا من أمراضِ طولِ الجلوسِ على الكراسيِ ، فهو مَرَضُ مِهْنَةٍ : أَعْراضُه الانشغالُ بكِتْمانِ الفضائحِ عن معاقبة فاعليها والوقايةِ من وقوعِها والتحصُّنِ مِنْ تكرارِها .

ومِنْ أعْراضِهِ الجانبيةِ : الانشغالُ بِرَأْيِ الناسِ وكَلاَمِهِمْ عن حقيقةِ الحالِ ، حتى يصيرَ الأمرُ أنْ يُصَدِّقَ أحدُهم كِذْبَ نفسهِ .

فهو كمنِ اسْتَقاءَ ثمَّ أكلَ ممَّا تقيَّأ !!

وللكُلِّ من ذلك كِفْلٌ فمسْتَقِلٌ ومستكثِرٌ بحسَبِ ضخامَةِ كرسيِّه وفخامتِهِ وجودتِهِ وصناعتِهِ !!

والكرسيُّ الذي يملكه كلُّ إنسانٍ ويدافعُ عنه ويكافحُ : كرسيُّ «الصِّيتِ» و«السُّمْعَةِ».

فاحذَرْ ـ وأنتَ تحافظُ على هذا الكُرْسِيِّ ـ أن تكونَ «عَزيزِيًّا» في تَعرُّضِكَ لخطاياكَ وتنشَغِلَ بإخفَائِها فقطْ وتَجِدَ الراحةَ عقيب ذلك !!

وبَدَلاً من أن تقولَ لمنْ يَعْلَمُ حالَك : ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ قل لنفسِكَ

التي تأمُرُك بالسُّوءِ : ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

واحذَرْ أن يكونَ رأيُكَ فيكَ هو رَأيَ الناسِ فيك .

فأنتَ تَعْلَمُ من نفسِكَ مالا يعْلَمُه الناسُ ، مِمَّا يؤثِّرُ في حيْثيَّاتِ الحكمِ بالسَّلْبِ .

ومن كلامِ العربِ : أنْ تَرِدَ الماءَ بماءٍ أكْيَسُ[1] .

فأنْ تَذُمَّ نَفْسَكَ وهِي تستَحِقُّ المدْحَ ، خيرٌ مِنْ أنْ تمدَحَها وهِيَ تستَحِقُّ الذمَّ ، وباركَ اللهُ في خوفٍ يُؤَمِّنُنَا ولا باركَ في أمنٍ يُورِدُنا المخاوِفَ .

* * *

(١) انظر : « جمهرة الأمثال » (٦٣) .

بَرْقُ الخُلَّبِ[1]

وعادَ الزوجُ يعظِهُا ويقولُ : ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

ولكنْ مَعَ مَنْ ؟!! بَرّقْ لمن لا يَعْرِفُكَ .

قال شيخ الإسلام ابن تيميةَ ـ قدَّس اللهُ روحَه ـ : « وقولُه : ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ بصيغةِ جمعِ التذكيرِ وقولُه: ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ بصيغةِ جمعِ التأنيثِ ولم يقل : (مما يَدعِينَني إليه) : دليلٌ على الفرقِ بين هذا وهذا ، وأنه كان من الذكورِ من يدعُوه ـ مع النساءِ ـ إلى الفاحشةِ بالمرأةِ .

وليس هناك إلا زوجُها .

وذلك أن زوجَها كان قليلَ الغَيْرةِ أو عديمَها ، وكان يحبُّ امرأتَهُ ويطيعُها ، ولهذا لما اطَّلَعَ على مراودتها قال : ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

فلم يعاقِبْها ولم يفرِّقْ بينها وبين يوسفَ حتى لا تتمكَّن من مراودتِه، وأمَرَ يوسفَ أن لا يَذْكُرَ ما جرَى لأحدٍ ، محبةً منه لامرأتِه، ولو كان فيه غيرةٌ لعاقب المرأةَ »[2] .

---

(١) ذكره العسكري في « جمهرة الأمثال » (٢٦٠) وقال : يجعلونه مثلاً لكل شيء لا حقيقة له وهو البَرْقُ الذي لا مَطَرَ معه .

(٢) « مجموع الفتاوى » (١٥/ ١١٩) .

وقولةُ عزيزِ مصرَ هذه تدلُّ على أنهم ـ مع إشراكهم ـ كانوا يَرَوْنَ الزنا خطيَّةً ، ويستغفرون منها فقد كانوا يُقرُّون بالصانِع ، وفي كلامِ يوسفَ ـ عليه السلام ـ لصاحبَيْه في السجنِ :

﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ .

فالفواحشُ مستقبحةٌ مِنْ كلِّ أهلِ الأرضِ وهو مما فُطِرَتِ الأممُ عليه حتى العجماواتُ[١] .

ومع ذلك فاجتنابُ الفواحشِ ليس هو كلُّ الدينِ ، ولا هو السبيلُ الوحيدُ لإرضاءِ ربِّ العالمين .

فهاهمُ العربُ كانوا يستَقْبِحُونَ الزنا ، وكثيراً من الفواحشِ، فما أدخَلَهُمُ الإسلامَ وكانوا مشركينَ .

فإنما الإيمانُ : قولٌ واعتقادٌ وعملٌ : قولٌ باللسانِ واعتقادٌ بالجنانِ وعملٌ بالأركانِ .

فأينَ هذا مِن ظَنِّ بعضهم أنَّ التروكَ هِيَ كُلُّ مرادِ الله منا؟!!

ويَسْكنُ لذلك ويطمئنُ :

---

(١) قال شيخ الإسلام في « مجموع الفتاوى (١٥/ ١٤٧) : بل قد ذكر البخاري في « صحيحه » عن أبي رجاء العطاردي أنه رأى في الجاهليةِ قرداً يزني بقردة فاجتمعت القرودُ عليه حتى رَجَمَتْهُ !!

وقد حدثني بعض الشيوخ الصادقينَ أنه رأى في جامعٍ نوعًا من الطير قد باضَ .

فأخذ الناسُ بيضةً وجاء ببيض جنسٍ آخرَ من الطير، فلما انفقس البيضُ خرجت الفراخ من غير الجنس !! فجعل الذكرُ يطلبُ جنسَه حتى اجتمع منهم عددٌ فما زالوا بالأنثى حتى قتلوها ، ومثل هذا معروفٌ في عادة البهائم . اهـ

ستعلمُ غداً إذا انكشفَ الغبــارُ   أفرسٌ كان تحتكَ أم حمــارُ

سيعلم إذا بُعثِرَ ما في القبورِ وحُصِّل ما في الصدورِ على أيِّ جرفٍ هارٍ كان **يقــف** .

* * *



خاتمـــة

وهنا وبملامِ عزيزِ مصرَ لامرأتِهِ أدركتْ موقفَنَا النهايةُ

انتهى مَحِلُّ الغرضِ من قصةِ يوسفَ ـ عليه السلام ـ .

بدأ الموقفُ بإثباتِ المراودةِ لها : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ ﴾

واختُتِمَ بإثباتِ الخطيَّةِ لها : ﴿ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾

وذهبَ كلٌّ واحدٍ من عناصرِ الموقفِ الأربعةِ إلى حالٍ بالِهِ يَظُنُّ أنه على الحقِّ .

سَكَتٌّ فيه عن أمورٍ عجز الخاطرُ عن صياغَتِها بما يُرضى فأوكلْتُ ذلك إلى القارئِ وهذا هو حقُّه في المشاركةِ .

ومع ذلك فقضيةُ العفةِ بالنسبةِ ليوسفَ ـ عليه السلام ـ لم تنتهِ بعدُ ، وتستطيع أن تقولَ : هذا الموقفُ هو البذرةُ لما بعده .

ففي تَمَامها ترى كلَّ عنصرٍ وقد أنتجتْ بذرتُه ما كان يُخْفِي بعضَه .

فالمرأةُ ظلَّتْ على إصرارها ، بل وجاهرتْ بذلك وصرَّحت بتهديدِهِ بالسَّجنِ واستعانت عليه بالنساءِ .

والمستعصمُ : زاد في استعصامِهِ حتى آثَرَ السَّجْنَ على الإخلالِ بعفَّتِهِ .

والدَّيُّوثُ : زاد في دياثته حتى وصلت إلى القيادة ، والعياذُ بالله .

حتى اجتمعت على يوسف ـ عليه السلام ـ كلُّ رياحِ الفتنةِ في اتجاهٍ واحدٍ لا يُضَادُّها إلا نفسُه المرحومَةُ .

فأصْبحً كالمربوط والمرعي خصيبٌ

ما ربطه إلا إجلالُه لربِّه

فاللهمَّ ارزقنا الإخلاص في القول والعمل

وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك

وارزقنا الهدى والتقى والعفاف والغنى

واستر عيوبنا وآمن روعاتنا

واحفظنا من بين أيدينا

ومن خلفنا في كل

أحوالنا وأوقاتنا

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

عصر الاثنين ١٤ رمضان الخير ١٤١٨هـ

الفهـــرس

الموضوع الصفحة

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

تَمَّ الْكِتَابُ تَكَامَلَتْ

أَيْدِي السُّــرُورِ لِصَاحِبِهْ

وَعَفَى الإِلَـٰـهُ بِفَضْلِهِ

عَنْ قَارِئِيـــــهِ وَكَاتِبِــهْ



العفة

الكنز الذي لا يكلف درهمًا

وبيان

موقف يوسف عليه السلام من امرأة العزيز

بين

أن أغلق الباب وفُتح

تأليف

أبي نوران

حامد بن عبد الحميد

مكتبة الصحابة

الإمارات - الشارقة

ت : ٥١٥٥٧٥ - فاكس : ٣٧٤٥٤٤

هذا الكتاب

❊ هذا الكتاب يتناول مسألة العفة من خلال دراسة
ما حدث بين أن أُغلق الباب وفُتح علىٰ يوسف العفيف
عليه السلام وامرأت العزيز .
وهو حدث حري بكل مسلم أن يقرأه بل أن يدرسه
بل أن يحفظه فكم من إنسان أُغلق عليه الباب وفُتح ثم
لم يكن خروجه كخروج يوسف عليه السلام .
فما من كلمة من ﴿ وَرَاوَدَتْهُ ﴾ إلىٰ ﴿ الْخَاطِئِينَ ﴾ إلا
ولها فائدة تخدم موضوع العفة خدمة بديعة .
وسترىٰ ذلك بنفسك إن شاءالله .
وإنما كان هذا الموقف مثالاً والأمثال تحكي
ولكن العفة تعم ذلك وزيادة فهي مظلة وظلها ظليل
عرفوها فقالوا :
(الكفُّ عما لا يحل ولا يَجْمُل)
ولهذا تفاصيل كثيرة تجدها في هذا الكتاب سواء
بالمنطوق أو المفهوم .

وفقنا الله للخير

المؤلف

مكتبة الصحابة
الإمارات - الشارقة